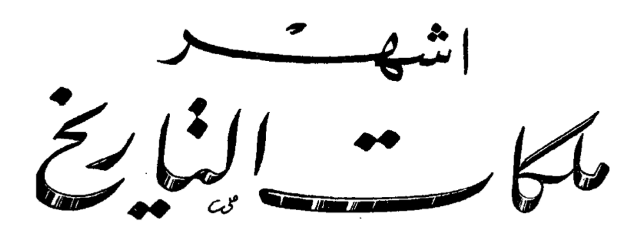

TIGHT BINDING BOOK

---

*



يتضمن سير أشهر الملكات اللاتي عرفهن التاريخ
منذ الفي سنة قبل الميلاد حتى الآن

بقلم الكاتبة الانجليزية

ليديا هويت فارمر

عنيت بترجمته ونشره

ادارة الهلال بمصر

سنة ١٩٣٠

مقدمة

من الملكات من قمن بشؤون دولاتهن كأحسن ما يقوم به الملوك العظام . بل إن منهن من قدن الجيوش وخضن معامع القتال والحروب واستعملن من سعة الحيلة وضروب الخداع ما يقصر عن إتيانه كبار الساسة والدهاة من الرجال

وفي هذا الكتاب الذي ترجمناه عن كتاب

" The Book of Famous Queens "

« للكاتبة الانجليزية « ليديا هويت فارمر »سيرة ست عشرة ملكة من أشهر الملكات اللاتي خلد ذكرهن التاريخ ككليوباترا وسيراميس والزباء ، وماري ستيوارث والملكة اليزابث وكاترينة الثانية والملكة فيكتوريا الخ . . وقد زدنا عليها سيرة الملكة المصرية القديمة « حتشبسوت »

ادارة الهلال

*

سميراميس

ماتت سنة ٢٠٦٩ ق . م



سميراميس والملك نينوس

يثير بعض المؤرخين الشكوك في حقيقة وجود هـذه الملـكة ويزعمون أن قصتها خرافية ، ويختلف البعض فى زمن حكمها . ولما كان لاسمها ارتباط بأعمال تاريخية تستحق الذكر كارتباطه بقصة نينوى وبناء مدينة بابل العظيمة لم يبق محل لتجاهل أعمالها

والتاريخ الذي اخترناه من بين التواريخ الـكثيرة هو تاريخ نينوس

مؤسس نينوى الذي يقال عنه انه ابن النمرود

ويكتنف مولد سمراميس ملكة « أشور » الغموض والابهام فتقول الخرافات انها ولدت في مدينة عسقلان من أعمال « سوريا » أمها ربة من الربات وقد هجرتها في الصحراء عند مولدها فأطعمتها الحمائم ، ولما صارت ابنة عام واحد وجدها راع اسمه سمراميس عند محل صخري فتبناها وكانت ذات جمال فتان وأطلق عليها اسم سمراميس

ولما ترعرعت اشتهرت بجمالها الفائق ،وذكائها المفرط ورآها يوماً منونيس حاكم نينوى وهو يتفقد رعية الملك نينوس في سوريا فاستوقفه جمال هذه الفتاة وشغف بها فتزوج منها . وسرعان ماتحكمت فيه فخضع لرغباتها ، واحترام أفكارها ، وكان يأخذ بنصائحها في كل موضوع

وكان الملك نينوس قبل ذلك بسبعة عشر عاماً قد أخضع كل أمم آسيا ما عدا الهنود والبكاترة وشيد مدينة نينوى - أو كما قيل أتم زبرقتها - على شاطىء نهر الدجلة . وكان محيطها ٦٠ ميلا وكانت مسوّرة بحوائط ترتفع مائة قدم وسميكة بحيث تسير ثلاث عربات بجوار بعضها على قمتها ، وحصنت تلك الحوائط بألف وخمسمائة برج يبلغ ارتفاع البرج الواحد مائتي قدم . ولما أتم الملك نينوس تشييد هذه المدينة عزم على الزحف على البكاترة لأنها كانت لا تزال تقاوم سلطانه في جيش لجب يبلغ عدده ١٧٠٠٠٠٠ راجل و٢١٠٠٠٠ فارس ونحو ١٠٦٠٠ عجلة حربية . فقابله ملك البدو بجيش يربي على ٤٠٠٠٠٠ رجل فهزمه نينوس واستولى على كل البلاد الا « بكتريا » مقر السلطان فضرب عليها نطاق الحصار . وكان مع الملك

منو نيس أحد كبار مستشاريه الذي أرسل في طلب امرأته سمراميس لتحضر الى معسكره

فلقيت سمراميس في ذلك فرصة لتكشف عن قوتها ، فارتدت بملابس لا تنم عن شخصيتها رجلا كانت أو امرأة . وسارت الى المعسكر فوجدت أن الهجوم موجه الى قسم المدينة القائم في السهل لا ضد قلعتها مما جعل البكاترة تحرس حصونها بقليل من اليقظة . فانتخبت فرقة من الجيش لها إلمام بالتسلق وقادتها بشخصها لمهاجمة القلعة ، فاستولت عليها وأخطرت الجيش المرابض تحتها في السهول . فلما عرف البكاترة أن قلعتهم قد سقطت قاوموا مقاومة ضعيفة ، وسقطت بسقوطها المدينة

فأعجب الملك نينوس بجرأة هذه المرأة الفتانة التي أكسبته النصر ، واعتزم على الزواج منها على أن يقدم ابنته الى منو نيس بدلا عنها . وكان منو نيس مشغوفاً بزوجه فلا طاقة له بالتسلي بغيرها عنها ، وتغلب عليه الخوف والحب فقتل نفسه في يأس ، وتم للملك الزواج من سمراميس

ومات نينوس بعد حكم ٥٢ عاماً ، وأوصى لزوجه بالملك من بعده لأن ابنه نيناس كان صغيراً . ويقول بعض المؤرخين انه لبى رجاء زوجة الفتية في التخلي لها عن سلطانه في طول البلاد لمدة خمسة أيام . فأصدرت الأوامر الى أطراف المملكة بالاذعان لاوامرها واحترامها ، ولبست خاتم الملك وجلست على العرش ، ولما استتب لها السلطان المطلق استعملت سلطتها شر استعمال فأمرت بسجن زوجها ثم بقتله ، وأعلنت نفسها ملكة مكانه وحكمت طول المدة الباقية من

عمرها . وسواء قتلت زوجها أم لم تقتله فقد قيل انها شيدت له قبر فخماً بجوار برج « بلوس Belus » وزينته بتماثيل من الذهب

واعتزمت على تخليد اسمها باقامة الآثار الثمينة ، ومباشرة المشروعات الخطيرة تريد بذلك أن تفوق شهرتها شهرة نينوس . وعلى ذلك أخذت تنشيء مدينة بابل العظيمة أو تزينها فشغلت في ذلك مليوني عامل . وأقام أساس بابل بناؤو برج بابل الشهير . ومن بين الأعمال التي نسبت اليها في بابل ، الحيطان والبروج والقلاع وكبري الفرات ومعبد بلوس وحفر البحيرة لسحب مياه الفرات كما بنت أقنية هائلة ووصلت مدناً مختلفة بالطرق اضطرت عند بنائها أن تمهد الجبال وتملأ الوديان

ويقال أنها سارت بجيش عظيم الى ميديا وغرست حديقة غناء قرب جبل بجستانون الذي يزيد ارتفاعه عن عشرة آلاف قدم والذي ملست سفحه ونقشت صورتها في حاشية من مائة حارس وعملت غيرها حديقة أخرى قرب مدينة « شاوون Chauon » وعلى صخرة عالية في وسط مديا شيدت قصراً فخماً بقيت فيه زمناً طويلاً كما شيدت في « اكباتانا Ecbatana » قصراً آخر عظيماً . وقد نقشت على الآثار ما يدل على سطوتها وعظمتها المدهشة :

« لقد خلعت عليّ الطبيعة شكل امرأة الا ان أعمالي قد فاقت أعمال أشجع الرجال ، فحكمت أمبراطورية نينوس التي تمتد شرقاً حتى نهر هيانام وجنوباً الى أرض العطر والمر ، وشمالا الى بلاد السيثيان والصوجديان

« ولم ير قبلي اشوري البحر الكبير ، فأنا أبصر بعيني أربعة بحو

تعترف شواطئها بسلطاني . وأكرهت الانهار العظام على ان تصب طبق ارادتي . وسيرت ماءها لاخصاب الاراضي التي كانت قبل قاحلة وبلا سكان . وأقمت البروج المنيعة ، ومهدت الطرق التي لم يطأها من قبل إلا وحش الغابة . وفي وسط هذه الاعمال العظيمة وجدت مجالاً للسرور واللهو . »

وكانت سمراميس متيقظة جريئة نى ادارة حكومتها فيروى انه في صباح يوم ما وهي تستكمل زينتها جاءها نبأ فتنة وقعت بين فريق من الاهالي ، فاندفعت في الحال نصف مدثرة وشعرها مبعثر وواجهت جمهور المشاغبين بشجاعتها . فأطفأ حضورها وبلاغتها غضبهم بسرعة ، ومن ثم عادت وأتمت زينتها بهدوء

وقد اعتزمت في النهاية على إخضاع الهند ، فأعدت المعدات لهذه التجريدة في سنتين . ولما كان الهنود مشهورين بعدد فيلتهم الكثيرة التي يستخدمونها في الحرب والتي يعدونها لا تقهر ، سعت في التغلب على هذه العقبة بحيلة حربية . فأمرت بتغطية مائة ألف جمل بجلود الثيران السوداء المخاطة لتقلد بها الفيلة ، وقد اعتلى كل حيوان محارب. وبنت ۲٫۰۰۰ مركب لتشق بها الهند وأخذت أجزاءها وحزمتها على ظهور الجمال فجهز ملك الهند قوة كبرى لملاقاتها ، وبعث اليها عند اقترابها من حدود مملكته يسألها : « لماذا أعانت عليه الحرب ، ومن تكون هي حتى تتجرأ على مهاجمة مملكته ؟ » فأجابت ملكة اشور المتصلفة الرسول : « اذهب الى ملكك وأخبره اني سأخبره بنفسي من اكون ولماذا جئت الى هنا »

وكانت سمراميس موفقة في أول نزال فقد أسرت مائة ألف

أسير وغرّقت ألف مركب هندية في نهر الهندوس . فتظاهر ملك الهند بالهرب وقاد جيش سمراميس وراءه . وبسبب وجود كبري عظيم على نهر الهندوس اضطرت سميراميس أن تنزل كل جيشها على الجانب الآخر وتتبع الهنود المتقهقرين بفيلتها الزائفة . فخافت الهنود في أول الامر تلك الفيلة الكاذبة ولكن عند اكتشاف تلك الحيلة عاد ملك الهند وهاجم سمراميس بفيلته الحقيقية ففرت جيوشها من أمامه وأصابها سهم ونشاب من يد الملك الهندي . فسارعت سمراميس مع فلول جيشها وعبرت نهر الهندوس ، ولم يعبر ملك الهند النهر وراءها لتحذير كهانه له من العبور وعلى ذلك تم بينهما الصلح على تبادل الاسرى ، وعادت سمراميس الى أشور بثلث جيشها

ولما بلغت حدود مملكتها علمت ان ابنها نيناس قد تآمر ضدها كما سبق أن دلت على ذلك التنبؤات التي جاء فيها انه عندما يتآمر ابنها ضدها فستختفي من نظر الهالكين وتستقبل بين الخالدين . فتنازلت عن العرش له ويقال انها قتلت نفسها لترفع الى الآلهة كما نصت النبوءة . ويقول آخرون انها تحولت الى حمامة وطارت من القصر مع سرب من الحمام ومن ثم يعتبر الاشوريون سمراميس خالدة والحمام مقدساً . وكانت حكمت اثنين وأربعين عاماً

ومن الصعب الحكم على قصة سمراميس اذا كانت خرافة أو حقيقة تاريخية . إلا أن أعمالها الخطيرة المزعومة متداخلة في تاريخ الاشوريين والبابليين فلا يسع المؤرخ الثقة أن يعطيها مكاناً بارزاً في التاريخ . ولو صح نصف أعمالها العجيبة فستأخذ بلا شك مكاناً عظيماً بين ملكات التاريخ القديم المشهورات

حتشبسوت

ماتت سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد

ان أهم ما كان يقدس المصريون إبان عظمتهم هو ملوكهم، يبالغون في الحرص على صيانة شخصياتهم حرصهم على أقدس آلهتهم . ليس فرعون في عرفهم سوى إله ابن إله دماً ولحماً ومعنى . فهو ابن الشمس ما دام حياً ومتى مات صار إلها وأقام في السماء بين طائفة الآلهة تقدم اليه معهم العبادة والقرابين

دعاهم هذا المعتقد الى أن لا يسمحوا لانسان مهما سمت صفاته وجلت خدماته أن يعلو عرش الملك إلا اذا كان من سلالة فرعونية تجري في عروقه دماء الشمس المقدسة . وكان هذا سبباً في أن يباح لأبناء الفراعنة أن يتزوجوا من بعضهم البعض احتفاظاً بتلك الدماء السماوية . أما اذا لم يكن للاخوة أخوات أو للاخوات اخوة فلا بأس من الزواج بأجنبي أو أجنبية مع بقاء الاصل في الحق الشرعي لسليل أمون را

حدثت في أوائل عهد الاسرة الثامنة عشرة أزمة في أبناء الفراعنة ولعلها ناجمة عن استمرار الحرب بين المصريين وجماعة الاسيويين الذين اغاروا على بلاد النيل . لذلك كان الاشراف يتسابقون الى الزواج من الاميرات الشرعيات يرقون بواسطتهن

عرش الملك ومن هؤلاء كان تحوتمس الاول الذي اشتهر بحروبه وفتوحاته لم يصر فرعوناً إلا بعد زواجه الاميرة يهمسي التي تقدس بها وصار حقيقاً بملك مصر

كانت البلاد عند توليته الحكم على أسوأ حال لما احتملته من استبداد أولئك الاسيويين ولما بذلته من جهود لطردهم وتطهير البلاد من شرهم وكان خوف المصريين من عودة أولئك المغيرين أو هو حقدهم عليهم دفعهم الى تعقبهم في ديارهم وتخريب مواطنهم وتشتيت شملهم . لذلك قضى تحوتمس الاول مدة حكمه وهي خمسون سنة في حروب متوالية تكاد تكون كلها مع الاسيويين

رزق تحوتمس الاول من زوجته الشرعية وشريكته في الملك حتشبسوت البكر ثم صبيين ماتا في المهد

ولكنه رزق من إحدى محظياته ولداً دعاه تحوتمس (وهو تحوتمس الثاني) وحدث أن توفيت زوجته في السنة الخمسين لحكمه فاجتمع كبار الدولة وطلبوا اليه النزول عن العرش إذ قد انقطعت الصلة بينه وبين امون را بموت زوجته

كان تحوتمس الاول يشرك ابنته حتشبسوت معه في الحكم في أيامه الأخيرة وكانت الاميرة على جانب عظيم من الجمال واللباقة والفطنة بحيث امتلكت قلوب الكثيرين من الامراء والاشراف

لم يكن لتحوتمس الاول بد من النزول عن العرش ولكن لمن ؟ لابنته والبلاد لم تألف الخضوع لامرأة أو لابنه غير الشرعي بعد تزويجه حتشبسوت على انه صبي ليس فيه شيء من الشجاعة ولا على شيء من العلم ؟ قد تضيع على يديه مستعمرات مصر أو يعود اليها

المغيرون فلا يقوى على صد هجماتهم فتعود البلاد الى احتمال الهوان.
عقد فرعون مجلساً من كبار الدولة وعرض عليهم الامر فقال فريق ان الاميرة حقيقة بالملك لأنها ابنة الآله أمون را وسليلة الفراعنة. وقال آخرون ان الاميرة لا تقوى على حمل السلاح وقيادة الجيوش وفرعون هو القائد الأعلى لجيوش مصر. ولكن ما عرفه الجميع من حذق الاميرة وسعة معارفها وما كانت تأخذ به نفسها من المران على الاعمال الحربية انتهى بالجميع الى الاتفاق على تتويجها ملكة لم يكن القوم لينتهوا الى ذلك لولا قولها هي: «ان في رجال الدولة من يصح الاعتماد عليه في ادارة الحروب اذا عجزت هي عن ادارتها»

صحت عزيمة فرعون على ذلك وعقد مجلسه العام وأعلن إرادته اني أنزل عن عرشي لابنتي حتشبسوت فهي من الآن ملكتكم تؤدون لها العبادة والطاعة. وهي صاحبة الكلمة العليا لا مرد لقولها. من أحبها وأطاعها فله الحياة ومن أبى فليس له سوى الموت

على اني سأزوجها من ابني الأمير تحوتمس الثاني ليكون لها عوناً وليقيم للعرش نسلا. ثم جاء بالامير ورفعه الى المقام الملكي. ما ذاع هذا النبأ بين الشعب والجند حتى امتلأت الصدور انشراحاً وانطلقت الالسنة بالحمد وتجاوبت أصوات البشر والتهليل. غير أن ذلك لم يدم طويلا اذ بدأت الكلمة تتفرق وانقسم الرأي العام الى قسمين على رأس كل منهما جماعة من الاشراف. دعي القسم الاول حزب الشرعيين القائلين ان الشرع لا يبيح الجلوس على العرش الا لسليل أمون را وليس في مصر حقيق بهذا سوى الاميرة حتشبسوت.

فهي الملكة الشرعية . ودعي القسم الآخر حزب المعارضين القائلين لا يجلس على العرش امرأة

اشتد الخلاف بين الحزبين ولكن ارادة فرعون جرت مجراها وأقيمت للملكة حفلة التتويج الدينية المدنية وكأن الملكة أرادت التقرب الى المعارضين أو اضعاف حجتهم فتقدمت في ثياب رجل يستر نصفها الادنى ذلك الجلباب الذي يمتد من القد الى القدمين . ونصفها الأعلى عارياً وأمرت ان ينطق باسمها (حاتشوبسيو) الشريف الاول) بدلا من حاتشوبستو (المحظية الأولى) على أن هذا لم يغير من طبيعتها ولم يؤثر في الشعب أثره . إذ بقي استياء المستائين على ما هو عليه

اعتزل تحوتمس الأول الحكم وبقي في عزلة هادئة يقضي ما بقي من حياته . واستمرت حتشبسوت في ادارة شؤون الدولة يعاونها من الاشراف سنموت كبير المهندسين وهو الذي تولى بناء معبد الملكة المعروف « بأعجب العجائب » ويهمس حامل ختم الملك . (وزير) وهو الذي اشترك مع سنموت في البعثة الى البونت . وتحوتي وزير المالية . وأبو سنب كبير كهنة امون ورئيس الانبياء في الارضين (البحري والقبلي) والنبي عندهم مرتبة من مراتب الكهنة . وكان هذا يجمع بين يديه الشؤون الدينية والشؤون المدنية . استمرت الحال على هذا المنوال ثمانية عشر شهراً شرعت الملكة ابانها في بناء معبدها الا أن أحوال الدولة الخارجية أخذت في الاضطراب وشقت المستعمرات عصا الطاعة . وبدا الخطر يهدد البلاد خشية تألب الاعداء واغارتهم متحدين على مصر

لم يطق تحوتمس الشيخ صبراً على هـذه الحال . وأكثر من اللجاج كبار الدولة من المعارضين حتى أوشكوا أن يضرموا نار حرب أهلية ، لم يعبأ تحوتمس بالعرش ولا بالجالسة عليه وأسرع الى الجيش وقاده الى آسيا حيث شتت شمل الأعداء وأوقع بهم شرّ إيقاع وتقدّم حتى بلاد النهرين واجتاز الفرات . واذ وطد سيادة مصر هناك عاد بالاسلاب والغنائم وأخذ يقيم لنفسه الهياكل الى جانب معبد ابنته وقد هدم منه أكثره . وجعل ابنه شريكا عاملا مع الملكة

رفع تحوتمس الاول كما يقولون الى السماء وبموته عاد تحوتمس الثاني الى خموله واستكانته . تاركا لزوجته مهامّ الملك مكتفياً منها بحقوقه الزوجية ، غير منقطع عن خليلته «ايست» ورزق من زوجته ابنتين نفرورا وحتشبسوت واولد خليلته صبياً دعاه تحوتمس الثالث. ومن المؤرخين من يقول إن هذا ابن تحوتمس الاول من محظية غير والدة تحوتمس الثاني . على أن الاقرب أن يكون الامر كما ذكرنا لما كان بينه وبين الملكة وزوجها من التفاوت في السن

أقام تحوتمس الثاني مع زوجته شريكا في الملك سنتين ونصف سنة . ويقال إنه قام في آخرها البدو من سكان الرمال بحركة عدائية ذهب هو لاخمادها ، ويؤثر عنه لمناسبة هـذه الحملة الصغيرة . عبارته الوحيدة الباقية : وهي « قسماً بمحبة را لي . وبما فضلني به والدي ، رب الأرباب أمون ، صاحب عروش الارضين ،(بحري وقبلي) ان لا أبقي منهم رجلا » على انه عاد من هذه الحملة وكأن حشرة سامة لدغته فأحدثت تسمماً في جسمه انتهى به أجله . وظهرت أعراضه في مومياه

أصبحت حتشبسوت بعد موت زوجها حرّة اليدين ، فجعلت همها إصلاح داخلية البلاد تقيم ما هدمه المغيرون من المعابد وتنظم مجاري المياه لاصلاح الري والزراعة وتنشط التجارة وتحيي الصناعة فراجت الحال وكثر الرخاء وازدادت موارد الكسب واطمأنت النفوس

ثم تفرغت الى معبدها « أعجب العجائب » الذي لا يزال قائماً في طيبة حتى اليوم بعد أن كشف عنه الأثريون وهو المعروف لدى التراجمة والسائحين بالدير البحري . إذ كان على انقاضه دير للاقباط أزاله المنقبون . كما ينتظر أن يزول مقام الشيخ الحجاج القائم على معبد الاقصر . إذ لا بد أنه يخفي تحته ما بقي من ذلك المعبد . وهذا المعبد العجيب حقاً يستند الى الجبل الليبي المظنون أن مساحته تمتد الى الجورنة ومدينة حبو . والبناء القائم عليه يشغل ٢٥٠ متراً وهو مؤلف من ثلاثة أدوار لـكل دور سطح فسيح . قائمة على أعمدة ضخمة تكثر عليها النقوش الهيروغليفية تروي لنا قصة مولد الملكة حتشبسوت واتصالها بالاله أمون ذاته الذي وقع على والدتها فكانت بذلك ابنة الأله مباشرة ، كما كانت ابنة تحوتمس الاول وكأنها أرادت بذلك إدخال اليقين الى النفوس الثائرة أن من يعارضها في الملك يعارض الأله ذاته . وانها في عرف الآلهة والناس الملكة الشرعية . وكأنها أرادت من الاشادة بحفلة تتويجها هذا المعنى . أهدت الملكة معبدها الى أمون رسمياً وكرست فيه هيكلين أحدهما للأله هاتهور والثاني للآلهة انوبيس . على أن المعبد في جملته صفحة تاريخ لحياتها

لم تقف إرادة الملكة عند هذا الحد بل زعمت أن الأله ترآى

لها « وطلب اليها أن يحضر لمعبدها الاشجار العطرية وأشجار اللبان المرّ من بلاد البونت بلاد الآلهة . التي لم يطرقها غريب منذ ألفي سنة »

وهذه البلاد واقعة على شواطيء البحر الاحمر ويظن البعض أنها سواكن ومصوع ويظن آخرون أنها صومالي لاند . فأعدّت الملكة بعثة تحت قيادة سنموت ويهمس وجهزت لذلك خمس سفن . ويرى الأثريون أنها أبحرت من الاقصر صعداً ثم سارت في قناة كانت هنالك تصل النيل بالبحر الاحمر ومنها الى البحر البونت

وصلت البعثة تحمل الهدايا فقابلها ملك البونت بريهو وزوجته آتي . أحسن استقبال دهشين لوصولهم الى بلادهم يسألونهم هل هبطوا من السماء . قدم سنموت الهدايا الى ملك البونت وزوجته وشحن سفنه من الاشجار والعطريات والذهب والفضة والكثير من الحيوانات وجماعة من الاهالي وجاء الملك وزوجته لمشاهدة مصر وملكتها . ولا تزال صورهم منقوشة على أعمدة وجدران المعبد « أعجب العجائب » حتى اليوم

غرست الاشجار في رحبات المعبد وفوق سطوحه لتكون كما هي عليه في بلادها فوق الجبال المرتفعة . حتى اذا تمت قالت الملكة في بهجة وسرور « لقد أنشأته للاله « بونتا » في طيبة يمرح فيه وينشق عبيره على ما يشاء »

كان عصر حتشبسوت عصر سلام وطمأنينة داخل البلاد غير أن الشئون الخارجية لم تكن على ما يرام اذ أحست المستعمرات بارتخاء في أيدي الدولة . فأخذت تتآمر بها وتحاول التخلص من حكمها

وكانت الملكة تحتال لاحباط سعيها بوسائل سلمية إلا أنها لم تكن سوى مسكنات وقتية ثم يعودون بعدها الى التآمر بالمصريين والانقضاض عليهم .

ولما كانت المعابد لا تفيد شيئاً في عصر السلام إذ كان لها أكثر ما تغنم الجيوش من الحروب لم ترق لهم هذه الحال فكانوا لا ينفكون عن إهاجة حزب المعارضين . وكان تحوتمس الثالث قد بلغ أشدّه وبصفته ابن فرعون وإن كان من محظية فهو أمير شريف يحق له الاستيلاء على العرش إن لم يكن بنفسه فبواسطة زواجه من ابنته الملكة وهي من دماء مقدس

اجتمع الكهنة حول تحوتمس يشددوا من عزيمته على المطالبة بالملك معضدين حزب المعارضين القائلين بأنه لا يجوز أن تجلس امرأة على عرش الفراعنة وإغراء للعامة أشاعوا له معجزة ادعوا فيه أن أمون ذاته اختاره فرعوناً لمصر . واليك ما رواه تحوتمس الثالث نفسه عن هذه الحادثة :

« كنت شاباً أقيم في المعبد قبل أن أرقى الى رتبة « نبي » . . . وكنت من فريق الكهنة المعروفين باسم « انتيف » « كهنة العبادة الملكية » على شاكلة هوريس خميس . وكنت واقفاً الى شمالي عمود في رواق الاعمدة . وكان ذلك يوم عيد السماء والارض الذي يتقبل فيه الأله القرابين من الملك . وكان الشعب يبخر على مذبحه . والملك يضع البخور على النار ويضحي بثيران وعجول . . . طاف الأله حول أعمدة الرواق ، لم يفهم الناس مقصده ، اذ كان يبحث عن جلالتي . فلما عرفني وقف . . . خررت له ساجداً فقدمني

وأجلسني على سرير الملك . . . دهش الناس لما رأوا . فأعلن اليهم ما أضمر الأله من الاسرار التي لم يكونوا يعرفونها . . . فتح أمامي أبواب السماء ، فتح أمامي أبواب أفق را فطرت الى السماء كالصقر المقدس وشهدت صورة في السماء سجدت لجلالته وشهدت أشكاله المجيدة . (وهذه عبارة رمزية يراد بها العرش الذي يقدم اليه المرشح للملك . .) أقامني ملكا . وتوّج رأسي بأكاليله ووضع على جبيني الحية وأكرمت اكرام إله وسجلت لي ألقاب الملوك . »

تذرع تحوتمس الثالث بهذه المعجزة التي أشاعها له الكهنة وبدأ بمواجهة الملكة حتشبسوت يدعوها الى النزول عن العرش مؤيداً حقه في الملك بتتويج الأله أمون له وبأنه ابن تحوتمس والوريث للملك . واجترأ في دعواه حتى ادعى على الملكة اغتصاب أو اختلاس العرش ضدّ شرائع البلاد . التي أصبحت في حاجة الى ملك يقود جيوشها للقضاء على مؤامرات المستعمرات . وتوسيع سلطان مصر

لم تكن حتشبسوت لتؤخذ بمثل هذه البداهة ولم تر من المصلحة مخاصمته فأخذته بالحيلة مظهرة له كل عطف زاعمة أنه من أنجب شباب مصر ، وأن له مستقبلا عظيما ترجو له تحقيقاً ثم أظهرت له حباً خالصاً وما زالت به حتى كسرت شرته وألانت حدته . فاذا به بين يديها تقبله ويقبلها كعاشقين ولكنه ما تركته باسمة واثقة بخضوعه حتى انتفض وعاد الى حدته . وهرب وهو يقول لا أقابلك أبداً إنك ساحرة فاتنة

عاد تحوتمس الثالث الى زملائه الكهنة يائساً من التغلب على

هذه المرأة العجيبة . ولكن للأيام حوادثها وأحكامها .لم يمض زمن حتى ظهرت الفتنة في كوش وكانت الملكة قد تقدمت في السن . وكثر لغط الشعب الذي ملّ الراحة وثار الجيش الذي كان يصبو الى القتال فوقعت الملكة في حيرة اذا هي أعدت جيشاً لقتال الكوشيين انضم الجيش الى الامير تحوتمس الثالث واذا ظفر بالاعداء عاد بجيش منتصر فلا يبقي عليها واذا هي صبرت خرجت المستعمرة عن سلطان مصر . شاورت رجالها في الامر فأجمعوا على تفضيل ضياع مستعمرة عن البلاد كلها . وأن السبيل الوحيد هو اعتقال تحوتمس كرهاً . والملكة لا ترى ذلك لما تتوقعه من تزويجه من ابنتها وفاقاً لشرائع البلاد لم تخف هـذه الاخبار عن الأمير فخفّ الى الملكة ولكن في حدة أشدّ من الأولى يبرق ويرعد ويهدد ويتوعد والملكة تقابله بالهدوء والسكينة والدعة حتى انتهت الى اعلانه برغبتها في تزويجه من الاميرة نفرورا وبذلك تجعله شريكا في الملك . على أن يعدل عن محاربة الكوشيين

كان تحوتمس الثالث يحب نفرورا ويرى في زواجه منها طريقاً مشروعاً للعرش فلم يتردد في القبول وما هي إلا أيام حتى كان زوج نفرورا وشريك حتشبسوت في الملك . ولكن أين السبيل للتوفيق بين إرادتين قويتين متعارضتين . هي مصرّة على الاحتفاظ بالملك وهو يأبى أن يكون له شريك في الملك فلم تطل الحال وكأن المستعمرات شعرت أو توهمت أن لم تبق لمصر قوة على محاربتهم فتألبت الدويلات الاسيوية واجمعوا أمرهم على خلع سلطان المصريين، أرادت الملكة استعمال وسائلها السلمية فاجترأ الاعداء على قتل

الرسل . واعلان عصيانهم . وانكارهم كل حق لمصر

خارت عزيمة الملكة ولم يعد بدّ من الحرب وكان تحوتمس قد ملك قلوب الجند وكثرت أنصاره وأصبحت الملكة وليس لها من حول وسند سوى حقها الشرعي ورجال شوراها لا يجدون للامر حلا إلا بواحدة من اثنتين قتل تحوتمس والملكة لا تسلم بذلك إذ أصبح زوج ابنتها أو ابنتيها كما يقول البعض . أو النزول عن المستعمرات ولا بد أن يحدث هذا التنازل ثورة داخلية

آثرت الملكة مصلحة الوطن وأمرت باعداد الجيوش ودعت تحوتمس الثالث وأبلغته أنها تأمره بتولي القيادة والسير الى بلاد النهرين ثم السير الى الكوش.فاذا به يعارضها في قحة ، يريد صاحب الجلالة ملك مصر تحوتمس الثالث أن يسير بجيوشه أولا الى كوشن ليخضعها بما لديه من جيش معدّ ويعود يذهب الى آسيا بما يكون رجال الحربية قد أعدوا من جيوش . هذه إرادتي انقضى عصرك التي ملأته كلاماً وجاء عصري الذي سأملأه أعمالاً

أرادت حتشبسوث مقاومته ولكن صيحات الجيش والشعب حول القصر يهتفون باسم أميرهم وقائدهم فتّ في عضدها . فلم تزد على قولها إني أنزل لك الآن عن العرش فاعتليه وانصرفت

لاجدال في أن أجل أعمال هذه الملكة إيثارها النزول عن العرش وهي صاحبة الحق وبيدها القضاء على هذا الثائر . وكان لها من معبدها «أعجب العجائب» .ما لا يقل عما صار لسيتي الاول من عماراته في أبيدوس والجورنه . ولا يقل عما صار لرمسيس الثاني من الرمسيوم . ولا يقل عما صار لرمسيس الثالث من مشاءاته في مدينة

حبو والغريب الذي يدهش له حقاً أن اسم هـذه الملـكة العظيمة لم يرد في لوحات الملوك في ابيدوس وسقارة ولا ذكرها مانيتون في قاعة ملوك وادي النيل . ولعل ذلك راجع الى كثرة ما أحدثه تحوتمس الثالث من التلف في آثارها في المعبد . والمسلات والهيا كل التي شادتها . أو ليغض الاهالي والـكهنة من تخايد ذكرى ملـكة أقامت على عرش الفراعنة اثنين وعشرين سنة . أسعدت فيها البلاد. ومهدت بحكمها السلمي لتحوتمس الثالث عصره المجيد

على أن هذه الملـكة حقيقةً الاولى أو القدوة أو على الاقل في طليعة الملـكات التي ظهرت على عروش الدول مثل كاترينه واليزابث. وماري تريز وغيرهن على أن الاثريين لم يعثروا حتى الآن على قبر هذه الملـكة الحقيقي وكان المشتبه فيه ما وجد أخـيراً من مومياء امرأتين لا ندري أكانتا ملـكتين أم من السوقة ولعل الايام تهيء لنا اكتشاف هـذا الاثر الجليل لأول ملـكة عظيمة في تاريخ الانسانية . سوى تاريخ نيتوكريس التي ظهرت في الاسرة السادسة. ولا ندري أخرافة أم تاريخ

كليوبترا

٦٩ ــ ٣٠ ق . م .



كليوبترا

قال أحد الكتاب « إن كليوبترا مصرية مولداً ويونانية دماً ، فكما أن في الاسكندرية ودلتا النيل قامت أهم حوادث تاريخها ، فان دم مقدونيا يجري في عروقها ، واذا كانت قد اشتهرت بالعبقرية والشجاعة والفطنة والاندفاع فذلك انما يرجع من ناحية الى الاصل الذي انحدرت منه ، ومن ناحية أخرى الى حوادث تاريخها ، والى طبيعة مجازفاتها وآلامها وآثامها التي سببتها الظروف المحيطة بها والتأثيرات التي جاءت متفقة مع الجو الشهواني »

ولكي نفهم بوضوح حياة كليوبترا تلك الملكة المشهورة يلزم أن نرجع الى صفحات التاريخ المصري ، ولا يصح الوقوف عنده ، بل يلزم أن نزور كذلك أرض اليونان ، كما أن لاحتفالات روما في زمن مجدها مكانا في قصة ملكة مصر هذه .

فدماثة اليونان وثقافتها مع الاستهتار المصري الشرقي ، وتمازجها في تلك الملكة مزج التاريخ بالقصة بالشعر عند الذين حاولوا الكتابة عنها

انحدرت كليوبترا من أسرة البطالسة الملوكية التي كان يمتاز مؤسسوها بأصالة الرأي وبعد النظر والعمل على ترقية الشعب في الفنون والعلوم والآداب ، الى أن جاء جد كليوبترا الاكبر فكان في التاريخ وحشاً فظيعاً ، وعلما على كل رذيلة وجريمة ، وكانت والدة ابيها شقية ظالمة لا تحترم رباط الزوجية ولا مبادئها فتبعتها بناتها في الاستهتار حتى انتهى الامر بهن بتقتيل بعضهن البعض

وقد سار أبوها سيرة والده فخلعته الرعية لبغضها له لما اشتهر عنه من ارتكاب الآثام والرذائل ففرّ الى روما طلباً للمساعدة على استرجاع عرشه ، فملّك المصريون عليهم كبرى بناته فعاد اليهم وهزمهم وقضى على ابنته بالموت

وقضى نحبه وكليوبترا في السادسة عشرة من عمرها وأوصى بالملك من بعده لها ولاخيها الصغير « بتولمى » على أن يتزوجا من بعضهما ويشتركا في الحكم معاً .

وهذا النوع من الزواج المبغوض عندنا الآن كان منتشراً بين

ملوك مصر القدماء إذ في خرافتهم أن الاخوة والاخوات من أربابهم وربابتهم كانت تتزوج من بعضها . ولما كان كل من كليوبترا وأخيها حدثا صغيراً فقد حكما المملكة بالاسم بينا أدار الحكومة وزيران هما « بوتنيوس واشلس » فأراد هذان الداهيتان الاستقلال بالامر في المملكة وكان أحدهما قائد الجيش ، فدافعا عن قضية بتولمي الصغير شقيق كليوبترا وزوجها المزعوم وخلعا كليوبترا . وأجلساه على العرش ليبقى مجرد صورة يلعبون بها كما يشاءون

فجرت كليوبترا الى سوريه لتثير الجيوش ضدهما بقصد أن تسترد حقها الموروث بالقوة . وسيرت بالفعل جيشاً قابله الوزيران بجيش عظيم على رأسه أخوها كملك اسمي وعسكر الجيشان في بليوسيم ، ولكن لم تقع معارك بين الجيشين لظروف طرأت لم تكن في الحسبان

اذ كان قد بلغ « يوليوس قيصر » الاسكندرية مقتفياً أثر خصمه « بومبي » بفرقة صغيرة من جيشه فنزل في القصر الملكي ، ولما علم بما يدور في البلاد ادعى انه صاحب الحق في حسم النزاع القائم بين كليوبترا وأخيها بتولمي .

وعلمت كليوبترا بمقدمه فلجأت الى الحيلة ، فأرسلت اليه رسالة تطلب فيها لقاءه ، وأعدت في الوقت نفسه قاربا وخلفت الجيش سراً واصطحبت خادماً وبلغت معه الاسكندرية ، وانتظرت حتى خيم الليل بسكونه ثم تقدمت بالخادم حتى حائط القلعة وأمرته أن يلفها في بساط ويغطيها بحيث تظهر كأنها متاع ثم يحملها على كتفيه الى المدينة ويتقدم بها الى القصر

وصدع الخادم بما أمر به ، وأفهم الحراس انه يحمل هدية الى « قيصر » فأذن له بحملها اليه . ولما فتحت الحزمة في حضرة القائد الروماني أخذ بمنظر كليوبترا وشغفه جمالها

وكانت كليوبترا في ذلك الوقت في الواحد والعشرين من عمرها على شيء كثير من الجمال وطلاقة اللسان ، فلما بسطت قضيتها أمام هذا الفاتح الذي دوّخ العالم نزلت من نفسه منزلا جعله أسيرها

فدافع عنها في الحال بحمية ، وأرسل في طلب الامير الصغير وألزمه بمشاركة أخته في الحكم . ولكن ذلك الامير أهاجه وقوع أخته في قبضة قيصر فخرج من القصر هائجاً ونشر بين الناس أن أخته قد خانته . فثارت ثائرة الاهالي حتى اضطر قيصر أن يسجن كليوبترا خوفاً عليها من هجوم الغوغاء على القصر . ورغم ان قيصر لم يكن لديه الجنود الكافية فقد أرسل فصيلة للقبض على « بتولمى » وإحضاره أسيراً ، فأدهش الاهالي جرأته هذه التي لم يسمعوا بها من قبل ، ولكن قيصر اعتلى البرج ومن نافذة فيه أطل عليهم وخطبهم قائلا بما انه يمثل أمة الرومان فهو يسعى في فض النزاع القائم بالعدل ، وأوصاهم بالهدوء ، فتفرق الناس وبقي الاخ والاخت تحت وصاية قيصر

فلم يرق ذلك فى نظر الوزيرين فأثار احدهما عليه حربا اضطر امامها قيصر أن يأخذ حيطته لقلة عدد جنوده ،فأمر باحراق مداخل المدينة من ناحية البحر وقد نجح تدبيره وهزم المصريين ولكن فديحة الهزيمة كانت صغيرة بالنسبة لحريق مكتبة الاسكندرية التي

أحرقت فيما أحرقه قيصر والتي كانت مناراً هاديا للغرب والشرق بما احتوته من نفائس الكتب . وفقد «بتولمى» في هذا الحرب حياته

وعاد « قيصر » الى روما بعد أن كان قد افتتن بكليوبترا فتزوج منها مع أنه كان متزوجاً من امرأة رومانية . ولم يطل بها المقام في مصر فتبعته الى روما ومعها طفلها سيزاريو واخوها الصغير الذي خلف القتيل في الاشتراك معها في الحكم

ومات قيصر بعد ذلك باربعة اعوام فحاولت أن تسعى لدي مجلس الاعيان في روما ليعترف بابنها شريكا معها في الحكم بدل أخيها ولكنها فشلت . وقد تلقت نبأ وفاته وهي في داره في روما ، وخشيت على حياتها من غضب الشعب الروماني عليها لما كان لها من التأثير على قيصر فسافرت سراً مع طفلها الى مصر . وكان أخوها في ذلك الوقت قد بلغ الخامسة عشر فأصبح له حق تصريف أمور الدولة فسعت في تسميمه كي تنفرد بالحكم

وبذلك تكون قد حكمت اربعة أعوام مع اخيها الاكبر واربعة مع أخيها الاصغر ، ثم انفردت منذ ذلك الوقت بالحكم

وقد كشف قتلها لاخيها عن غرائز وحشية كانت مطوية فيها ورثتها عن اجدادها الذين ارتكبوا أشنع الجرائم . وأكبر الآثام . فقد شهدت ابيها يقتل اختها الكبرى كما قضت شبابها بين مناظر اللهو والخلاعة

وكانت موقعة « فيلبي » قد سطرت لانطونيو مجداً وسلطاناً فجعلته أبرز رجل بعد قيصر كما كانت كليوبترا أبرز امرأة في العالم .

ولم تعلن كيلوبترا بعد قتل قيصر مناصرتها لخصومه ولا لأنصاره ولـكن حدث أن انطونيو اتهمها بمالأة كاسيوس ودعاها للمثول امامه ، وكان يومئذ في طرسوس وأوفد لها رسالة مع أحد ضباطه الذي بهره جمالها لأول نظرة فطمأن من خاطرها وأكد لها أن انطونيو سيفتتن بها وأشار عليها أن تسافر الى طرسوس في حاشية فخمة وفي زينة وفخفخة .

فأخذت بنصيحته وتم لها اخضاع انطونيو لارادتها

« وسر قوة كليوبترا كان في فراستها الغريزية التي تتعرف بها طبيعة الرجال ، وفي بصيرتها التي تكشف بها عن مواطن الضعف فيهم . فقد كسبت يوليوس قيصر بترامیها تحت سلطانه وكسبت مارك انطونيو بمعالجتها سلطانها عليه . داهنت قيصر من ناحية حبه للسلطان فأخضعت نفسها له . وخلبت لب انطونيو بتظاهرها بالقوة أمامه وبيناها حملت نفسها بنفسها الى قيصر اذا هي تأمر انطونيو أن يأتي اليها . . »

ولما بلغت كليوبترا بقاربها الى طرسوس خفّ الناس الى مشاهدتها وتاهوا بها عن كل عمل . فأصدرت اوامرها بنصب الخيام على الشاطىء

ولما بلغ انطونيو قدومها أرسل الى الملكة المصرية يدعوها لتناول الغداء معه ، فردت عليه في أدب تقول إنها تكون ممنونة لو تفضل هو وقواده ونزلوا ضيوفا عليها . فابي دعوتها ، ولما دخل مع قواده اليها عجبوا مما رأوه في الخيام من مظاهر العظمة والابهة . فكان يقدم الاكل لهم في صحون من الذهب المرصع بالاحجار

الثمينة ، كما كانت المقاعد الاثنى عشر التي صفت للضيوف محلاّة بالذهب والارجوان . ولما أثنى انطونيو على ما شاهد ردت عليه الملكة في غير اكتراث ان هذه الاشياء غاية في البساطة ولكن وقد اعجب بها فانها تقدمها اليه هدية صغيرة . ودعاها اليه في اليوم الثاني وحاول أن يتأنق في عزومته ويقلد مظاهر عظمتها ولكن أسقط في يده فأولمت لهم كليوبترا وليمة أخرى فكان ثم أثاث أفخر مما كان وتحلت هي بالجواهر النادرة مما أدهش ابصار ضيوفها . وعند نهاية الوليمة أهدت كل ضيف الكرسي الثمين الذي كان يجلس عليه وفرقت بين ضيوفها طقم الاكل من صحون وملاعق من الذهب والفضة المرصعة بالجواهر الثمينة

وكانت ملابسها في كل مرة فتنة للناظرين . كما أنها أبدعت في انارة خيامها بمختلف الانوار . وكانت تكلم كل سفير بلغته . ولا عجب فانه يقال إنها الوحيدة من بين كل ملوك مصر التي تفهم لغة كل رعاياها والتي لا تقل عن فهم سبع لغات

وكانت يومئذ تناهز الخامسة والعشرين من عمرها فكان جمالها الشرقي في أوجه كما كانت تفتر عن ذكاء وحصافة

ولما عتب عليها أنطونيو تبذيرها ضحكت منه وقالت إن غداء الغد سيتكلف ما يسوى (من عملتنا الحاضرة) ٣٠٠ الف دولار . فلم يكد يصدق هذا ، وعقد معها رهانا . ولما جاء مع قواده في اليوم الثاني لم ير مظهراً جديداً من مظاهر الفخامة فقال ضاحكا إنه كسب الرهان . فأجابت أنها ستأكل وتشرب الثلثماية الف دولار أمامه

وكانت تعلق في أذنيها لؤلؤتين من أكبر ما عرف في العالم كانت قد ورثتهما مع المملكة والتاج . وكانا يقدران بما لا يقل عن ٢٢٢ر٠٠٠ دولاراً .

وجاءها الخادم بكوبة من الخل فأخذت من أذنيها إحدى اللؤلؤتين وألقت بها في الخل ولما ذابت شربت السائل . وأرادت أن تعالج اللؤلؤة الاخرى فاختطفها من يدها أحد الضيوف وقال لقد كسبت الرهان . وأرسل بها الى روما حيث قطعت الى قطعتين عمل منهما قرطان لتمثال فينوس في البانثيون

وكانت كليوبترا مغنية ، وكانت جميلة ، وكانت على شيء كثير من الثقافة . فاستعملت كل فنون جمالها وعقلها لاخضاع ارادة القائد الروماني العظم والاستئثار بقلبه . ووفقت الى ما أرادت . ففتن بها ونسي زوجه التى تركها في روما ، ونسي كذلك حقوق بلاده ، ونسي حتى انتصاراته وأصبح أسيرها . فأقنعته بان يتبعها الى الاسكندرية فتبعها . وهناك تركا لنفسيهما العنان

وكان لكل منهما قصر في الاسكندرية . فكانا يولمان الولائم لبعضهما ويسرفان فيها أي اسراف

وبذلت كليوبترا جهدها لتلفته عن التفكير في العودة الى روما

وأول طلب لها منه كان قتل اختها التي كان اسرها قيصر فأمر انطونيو بقتلها في معبد ديانا . فحق عليها تسمية شكسبير لها « بثعبان النيل القديم »

وحدث أنه بينا كان انطونيو غارقا في ملذاته أن ثارت روما

وماتت امرأته الرومانية ونفى أخوه ، وصارحه اكتافيوس قيصر العداء فاضطر أن يعود انطونيو الى روما وتزوج من أخت قيصر الصغير وبذلك تم الصلح بينهما . وأخذ يملق كليوبترا فكان يهديها بالمقاطعات الرومانية حتى انه وعدها يوما تحت تأثير الخمر أن يهديها الامبراطورية الرومانية . وأهداها فيما أهداه لها مكتبة برجاموس التي كانت من نصيبه في اسلاب الحرب . فاستعادت بها الاسكندرية مكانتها في العالم . وأصبحت كليوبترا هي وابنها من قيصر ملكة على مصر وقبرص وليبيا وكل سوريا . كما ملك ولد انطونيو الاكبر ـ ارمينيا ومديا وكان نصيب ولده الاصغر سوريا وفونيقيا وسيسليا

وعاد فتجدد الخلاف بين انطونيو وبين اكتافيوس قيصر لسلوك انطونيو الشائن مع أخته زوجه الجديدة . فأعدا عدة الحرب ورحلت كليوبترا مع انطونيو الى أثينا وما كادا يشتبكان حتى خشيت كليوبترا الحرب وانسحبت الى مصر بجيشها. فترك انطونيو المعركة ولحق بها فى عرض البحر . وبلغا الاسكندرية معا وعادا الى لهوهما رغم اقتفاء اكتافيوس لهما

فلجأت الى الحيلة وعزمت على خيانة انطونيو فأقنعته بأن يرسل الرسل الى خصمه في طلب الصلح ، وأرسل معهم ضباطاً لها وزودتهم بحق التكلم عنها مع اكتافيوس على حدة .

وأخذت هي في تجربة مختلف السموم توقعا لما يكون من النتائج .

وأخيراً جاءت الاخبار أن اكتافيوس قد بلغ بليوسيم وأن المدينة سقطت في يديه . وأن سقوطها يرجع لخيانة كليوبترا التي

بعثت بكلمة في السر الى حاكمها بتسليمها . ولكي تبرىء نفسها من الاشاعات التي راجت ضدها بهذا الشأن سلمت امرأة الحاكم واولاده لأنطونيو لينتقم منهم لنفسه بتقتيلهم

وأخذت تنشيء لها قبراً يلاصق معبد ازيس، وأمرت بأن يوضع فيه كل ما جمعته من مال وحلي وتحف وعطور ، وأن يوضع في طبقته السفلى قنب وكتان ومشاعل وغير ذلك مما هو قابل للالتهاب حتى اذا دنت ساعة الخطر ولم ترلها مخرجاً أشعلت في نفسها وفي كنوزها لتحرم منها خصومها .

ولما علم بذلك اكتافيوس خاف أن تفر من يديه بكنوزها فبعث اليها بالرسائل يعدها باحسن معاملة عند بلوغه الاسكندرية

ولم يكن عند انطونيو علم بشيء من كل ذلك . وكان قد تقدم اكتافيوس نحو المدينة فاشتبك معه انطونيو في أول يوم في معركة صلا فيها اكتافيوس نارا . وعاد منتصراً الى القصر . فأولمت له كليوبترا وليمة لانتصاره وبعد انتهاء الوليمة استقر رأيه على مهاجمة خصمه بالبر والبحر ولم يكد يقود جيوشه البرية الى مرتفع ليشهد تقدم سفنه التي كان يلزم أن تقوم بالهجوم الاول حتي شهد سفينة كليوبترا الرئيسية تطوي علمها وتذهب بقواتها الى الخصم ففتحت هذه الخيانة عيني انطونيو

وجرى في غضبه الى القصر يبحث عن هذه المرأة الفاجرة . وكانت قدتوقعت ذلك فاختبأت في قبرها مع تابعتين لها ، واذاعت انها قتلت نفسها فلم يكد يسمع هذا حتى تغلب حبه على غضبه وأمر تابعه أن يغمز قلبه بخنجره لانه لم يعد يرغب في الحياة بعدها . فلم يرض

الخادم الامين أن يصنع ما أمر به . وتحول الى قلبه هو وطعنه بخنجره فخر صريعاً عند قدمي مولاه . فصرخ انطونيو لقد علمني العبد والمرأة كيف أموت ! وطعن نفسه في الحال فخر مضرجا بدمه .

وزار اكتافيوس كليوبترا فوجدها غارقة في بحر من الاحزان وقد امتنعت عن الاكل فبعث اليها يقول إنه سيقتل اولادها اذا هي أساءت الى نفسها . ولم تجد فيه ما وجدته في سابقيه . فعادت الى قصرها وتظاهرت بالهدوء وكتبت خطاباً اليه . وطلبت سلة من التين . وبعد أن فحصتها خبأت فيها صلا ورقدت فتسلل الصل اليها ولدغها في ذراعها فقتلها في الحال

ودفنت بجوار انطونيو كطلبها . وكانت وفاتها في التاسعة والثلاثين وأصبحت بعدها مصر ولاية رومانية

وهكذا قضت كليوبترا نحبها بعد أن خلفت في التاريخ قصة تفوق قصص الف ليلة بكثير

الزباء

ماتت سنة ٢٦٠ للميلاد

الزباء أو زنوبيا ملكة الشرق هي زوجة أودنائس الذي كان أميراً مطاعاً ، وزعيما على عدة قبائل في الصحراء ، ساعده الجد فأصبح سيد الشرق ، فخطبت محالفته الرومان ولقبوه بـ « أجستوس قائد الشرق » . وقد كسب بالفعل عدة انتصارات بمحالفته لروما ضد شاه العجم فرده بجيشه مرتين الى اصفهان قاعدة بلاده

غير ان ابن أخيه لسبب مجهول ذبحه في وسط غزواته فانتقمت زنوبيا لزوجها بتخريب ميثونيوس . ولما كان أولادها الثلاثة صغاراً لا يصلحون لتولي الحكومة ، فقد حكمت في أول الأمر باسمهم ثم أعلنت نفسها بعد ذلك ملكة على مقاطعات زوجها ولبست تاج الملك

وقد تضاربت أقوال المؤرخين عند كتابتهم عن زنوبيا فقد ذكر بعضهم أنها ابنة زعيم عربي اسمه عمرو بن ضارب بن حسان ، ويزعم آخرون انها يهودية . أما هي فكانت تزعم أنها من سلالة ملوك مصر المقدونيين

وكانت في جمال كليوبترا الا أنها تفوقها في الخلق والحمية . وكان ذكاؤها نادراً ، وكانت متفقهة في اللاتينية ، واليونانية ، والمصرية . وكان فلو تجنس المشهور أستاذها ، كما كانت كتب هومر وافلاطون

معروفة عندها . وكانت تكتب اليونانية بسهولة . وجمعت تاريخ الشرق ونسقته لنفسها

وكما كانت مشهورة بجمالها كانت مشهورة بشجاعتها ودهائها وبأسها . فكانت تتبع زوجها في الصيد ولا ترهب الحيوانات المفترسة أسداً كان أو نمراً

ويرجع الفضل في انتصارات زوجها الى بأسها وحصافتها وبعد نظرها . فلم تكن فيها صفة الضعف ، ولا تلك العواطف التي تنطوي عليها الملكات

ولما حكمت عاملت الرعية بالعدل وسارت فيهم سيرة حكيمة فكانت اذا اضطرت أن توقع جزاء ، أضعفت في نفسها عوامل الرحمة كما أنها اذا رأت محلا للعطف ، قاومت عوامل الانتقام فيها . فكانت في الحالين انما تصدر عن ارادة تخضع النفس أمامها للعقل . وهي في غير ذلك كانت تعطف على الرعية عطفها على الامراء الصغار

وكانت في سياستها المالية للدولة تغدق المال إغداقاً على الشعراء والفلاسفة والفنانين والعظماء وتستقدمهم من البلاد النائية اليها وتجمعهم حولها . وكانت تجزل العطاء لحاشيتها عندالمناسبات . وفيما عدا ذلك كانت مدبرة في شئون الدولة الى حد أن اتهمت بالتقتير

وكانت تقيم في قاعدة ملكها بالميرا التي قيل إن سليمان قد أنشأها محلة لاستراحة القوافل من وعثاء السفر في الصحراء . فبلغت من العظمة والجمال والقوة في أيام ملكتها ما جعلها قبلة الشرق والغرب كانت تحيط بها الحدائق الغناء والنخيل من كل جانب ، كما كان

بها عمارات من المرمر ، وكانت شوارعها ممهدة نظيفة . أما حدائقها فكانت تخلب الابصار . وكان فيها معبد للشمس مشهور آية على حذق الانسان ومهارته في فن المعمار ، ففي وسطه كانت تقوم اهرامات دقيقة وقباب وبروج وعمدان لاعداد لها . وكان يقوم في وسطها القصر الملكي الذي كان من اتساعه وعظم قبابه يظهر كأنه مدينة داخل مدينة

وأضافت زنوبيا الى ممتلكات زوجها بلاد مصر فأصبحت مملكتها تمتد من الفرات الى البحر الابيض المتوسط ، بما في ذلك القدس وأنطاكيا ودمشق وبلاد أخرى مشهورة في التاريخ

ولم يرض امبراطور روما أن يعترف بها ملكة على ولايات زوجها فبعث اليها بجيش مرة بعد مرة فكانت تهزمه في كل مرة شر هزيمة

وأخيراً لما صار أورليان المفترس امبراطوراً على روما أغضبه تجرؤ امرأة على طلب مخالفة روما وتحديها لسلطانه فلم يكد ينتهي من اخضاع منافسيه في الغرب حتى حوّل جيشه الى تلك الملكة القوية التي تجرأت على أن تسمي نفسها اوجوستيا ، وأن تلبس أولادها ملابس ملوك الرومان الارجوانية . ولما شاع اقتراب الجيش استعدت للقائه

وجاءت النذر بقدوم رسل أورليان يطلبون منها الاذعان لمولاهم وكانت ساعتئذ خارج المدينة تقتفي النمور والآساد فلما بلغها الخبر عادت من القنص على عربتها ونادت خادمها : «مر خدم الامبراطور أن يقتربوا لنسمعهم»

فاقتربوا فقالت لهم :

« أدوا رسالتكم »

فقالوا : « منذ عدة سنين، وثروة مصر والشرق تصب في الخزانة الرومانية ، وأخيراً تحوّل هذا المجرى الى بالميرا . فقد كانت مصر وسورية وبثنيا وما بين النهرين ملحقات لروما ولم تكن ملكة بالميرا الا ملكة على بالميرا فقط واليوم فهي ملكة على مصر والشرق – فهي اوجستيا الامبراطورة الرومانية – ولبس اولادها لباس القياصرة فاذا كانت القياصرة السابقون قد أقروا لها بهذا الشرف أو سمحوا لها به فان أورليان لم يسمح به ومع احترامه لعظمة وذكاء زنوبيا فان عليه واجباً نحو مجد وشرف الدولة الرومانية بحيث يجب أن تعود الامبراطورية الى حدودها في زمن انطونيو »

فقالت بصوت هادىء : « لقد تكلمتم بوضوح كما يجب على الروماني أن يفعل » ثم اتقدت عيناها بشرر الكبرياء فاستأنفت القول : « والآن اسمعوا اليّ ، وكما تسمعون انقلوا القول الى موفدكم . قولوا له إني كيفما أكون فقد كونت . وان الامبراطورية التى رفعتني الى العرش قد صاغها زوجي معي . انها ليست منحة ولكنها ميراث وغزو وتملك . ولو تخلى مرسلكم عن ممتلكاته أو بعضها بمجرد السؤال سأتخلى عن مصر وعن شواطىء البحر الابيض المتوسط . حدثوه اني كما عشت ملكة . فان شاء الله سأموت ملكة واذا كان مطاعاً فأنا مطاعة كذلك – أطمع في امبراطورية أكبر وفي شهرة غير ملوثة ، وفي حب رعيتي لي . الخ الخ »

وصرفت الرسل بكبرياء وأخذت تستعد للدفاع عن حقوقها وعن مملكتها . ولم تنتظر حتي يأتي امبراطور الغرب الى بلادها بل

سارعت الى لقائه واصطدمت معه في معركتين عظيمتين كانت فيهما تقود الجيش بنفسها ، ولكنها هزمت في كليهما واضطرت للنكوص حتى أبواب بالميرا وهناك قامت بعمل تحصينات مهمة وعادت فنازلت أورليان من بروجها فهزمته في أول المعركة حتى اضطر أن يكتب عنها : «ان الذين يتكلمون باحتقار عن الحرب التي خضتها ضد امرأة يجهلون طبيعة زنوبيا وقوتها . فمحال أن يحصر استعدادها الحربي من حجارة وسهام ، ومختلف أنواع الاسلحة والادوات الحربية »

ولما كان أورليان يشك في نتيجة الحصار كتب يطلب تسليم المدينة فرفضت طلبه باباء فجرح ردها عزته فأخذ يمنع وصول المؤن اليها من حلفائها . فلم تستطع المدينة ان تبقى طويلا على الحصار . وفكرت الملكة في الفرار لتطلب المساعدة من الجوار حتى تستطيع انقاذ بلادها . وأخذت في تنفيذ الفكرة فامتطت جواداً وطارت به حتى وصلت شواطىء الفرات . ولكنه اقتفى أثرها وأخذت أسيرة . وجيء بها في حضرة الامبراطور الروماني . فسألها : «كيف تجرأت على تحدي سلطة روما ؟ ». فأجابته : « انها احتقرت ان تعترف برجال كأورولس ، وجاللينس سادة لها. أما أورليان فهي تخضع له كغالب ومليك »

وطلب الجيش من الامبراطور قتلها . ولكنه أبقى على حياتها لتحيي انتصاره في روما

وأخذ طريقه ومعه زنوبيا الى روما بعد غزوه بالميرا وسلب كنوزها وبعد أن أبقى بها جانباً من الحرس الروماني ، ولكنه لم يكد يبتعد قليلا حتى جاءته الانباء بهياج البلمريين فعاد اليهم وخرّب

بلدهم ولم يبق على كبير ولا على صغير. وذهبت بالميرا في زوايا النسيان، ومنذ مائة عام فقط كشف بعض المسافرين الانجليز آثارها.

وبلغ الامبراطور روما وحيته الجماهير على انتصاره ومرت زنوبيا في الموكب وقد قيد ذراعاها بقيود من الذهب وكان يعينها من الجانبين بعض الرقيق على حملها لثقلها

وقد اختلف المؤرخون في حياتها بعد الاسر فقال بعضهم إنها قتلت نفسها جوعاً حتى لا ترى بعينها مصرعها، ومصرع بلادها. وقال بعضهم إن الامبراطور وهبها داراً بحديقة عاشت فيها محترمة، وزوجت بناتها من أشراف العائلات الرومانية، وصار ابنها الاصغر ملكا على جزء من ارمينيا

وعلى ذلك بدىء بالـكلام مع والد الاميرة المحبوبة

فوافق والدها على الزواج بشرط أن يكون مهر العروس جمالها وأدبها ، وصرح بأنهما يرجحان في القيمة ثروة العالم . ولم يقف عند هذا بل طلب الى العريس أن يرد اليه مقاطعتي انجو ومين اللتين كان قد اغتصبهما منه

والواقع أن والد مرغريت رغم حيازته لعدة ألقاب رفيعة فانه كان صعلوكا ملـكياً . فقد أخرج من نابلي ، وأخذت منه انجلترا انجو ومين واضطر أن يرهن بقية ممتلـكاته ليدفع الفدية عن نفسه لدوق بورجنديه الذي احتفظ به أسيراً لستة أعوام . فبقي بعد ذلك لا يملك قصراً ولا فداناً من الارض

وعاد رسول هنري الذي كان قدأوفده فيهذا الشأن يحمل تلك المطالب العجيبة . فرضي بها الملك وأرسل وكيلا عنه ليعقد العقد ، وتم ذلك بالفعل في نوفمبر عام ١٤٤٤ . وكانت في الخامسة عشرة من عمرها ،وكان هو في السادسة والعشرين

وسافرت الى انجلترا لتقابل الملك هنري الذي تزوجت منـه بالتوكيل ومعها عدد من النساء النبيلات . وكم كان سفراً شاقاً على عروس . فقد سافرت ولا مال لديها ولا ملابس كافية ، ولم تـكد تصحو من دوار البحر حتى أصيبت بالجدري . ولحسن الحظ كان أثره بسيطاً . ومما يلفت النظر فاتورة الطبيب التي قدمها نظير عيادته ملـكة انجلترا في أثناء السفر والمرض فقد بلغت ٣ جنيهات و ٩ شلنات وبنسين ! !

ولم تـكد بعد ذلك تجلس على العرش حتى تجمعت عليها المصائب

مرغريت اف انجو

(١٤٢٩ — ١٤٨٢)



كانت مرغريت اف انجو أصغر بنات رينيه دوق انجو ، وكان أبوها ابن لويس الثاني ملك نابلي وسسايا والقدس وسل ، ومع أن رينيه كان الوارث لعدة ممالك إلا انه عند تزويجه لابنته لم يكن يملك شيئاً . فبدلا من ان يمهرها مهراً يليق بمقامها فانه سلك في ذلك الموضوع مسلكا خاصاً

وكان هنري السادس ملك انجلترا الذي قد خربت حرب الثلاثين بلاده راغباً في الزواج فبث وكلاءه يخطبون له ، وكانت مرغريت من بين الاميرات اللاتي انتخبن للملك الأعزب . وكانت قد بعثت له بصورتها فلم يعجبه من بين الاميرات الا مرغريت .

ولزمتها البقية الباقية من عمرها

ولما كان كل من الملك والملكة في حاجة الى النقود فقد أخذ يسعفهما أحد الكرادلة الاغنياء فبقي له نفوذ عليهما . ولكنه توفي فبقيا بعده بلا معين . فابتدأت أعراض مرض الدماغ تبدو على الملك . فوقعت بذلك المملكة في أيدي الملكة الفتية التي لم تكن تتجاوز الثامنة عشرة . فوجدت نفسها مضطرة للاعتماد على مركيز صفولك الذي رفعه الملك الى تلك المرتبة والذي كان وكيلا عنه في زواجه منها

وكانت قد تجددت الحرب بين فرنسا وانجلترا في عام ١٤٤٨ وكتب النصر فيها لشارل السابع وغزا نورماندية . فكان وقع هذه الهزيمة على الشعب الانجليزي شديداً فازداد كرهاً على كرهه للملكة مرغريت وأطلق عليها اسم « المرأة الفرنساوية » كما كان يردد « ان السجن أحق بالملك هنري من العرش »

وعاد دوق سمرست من فرنسا مخذولا حيث فقدت انجلترا كل ولاياتها التي كانت لها هناك ما عدا كاليه فأوقع الشعب الاثم على الملكة. وجاء دوق اوف يورك من ارلندا واتهم سمرست في البرلمان ، فانتهى الامر باعتقاله

وكان قد ازداد مرض الملك حتى لم يعد في الامكان اخفاؤه كما كان قد رزق في ذلك الحين وارثا للملك . فانتهز الفرصة دوق اف يورك وادعى السلطة لنفسه . وقد بقي الملك أكثر من عام لا يعي قط ما يجري حواليه . ولما بلغ ابنه البرنس ١٥ شهراً عادت الى أبيه ذاكرته وابتدأ يتعرف ولده وامرأته

« في يوم الاثنين ، عند الظهر ، جاءت الملكة اليه . وجاءت بمولاي البرنس معها . فسأل الملك ما اسم البرنس ؟ فقالت له الملكة ادوارد . وعندئذ رفع يديه وشكر الله . وقال إنه لم يعرفه حتى الساعة ، وانه لم يكن يهتم بما يقال له ، ولا أين هو طول أيام مرضه ، ثم سأل عن عمر ابنه فقالت له الملكة عنه . واكتفى بذلك»

فاهتمت الملكة للأمر وأخذت تستعد لاعادة الملك الى سلطان الحكم ولكنه كان ضعيفاً جداً فحمل الى مجلس الاعيان وحل البرلمان وأطلق سراح سمرست

فهيأ دوق اف يورك جيشاً بمساعدة آخرين وجاء به قرب لندن.وكان الملك يكره سفك الدماء فأرسل اليهم رسولا يسألهم: «لماذا جهزوا جيشاً ضده ؟» فأجاب دوق اف يورك انه لن يغمد سلاحه ما لم يسلم دوق اف سمرست الى العدالة. فأبى الملك وحدث هجوم قصير سفك فيه دماء كثيرين وقتل سمرست، وجرح الملك نفسه بسهم أصابه في عنقه . ولكنه لم يتحرك من مكانه وبقي وحده تحت العلم الملكي . ونشأ عن ذلك ان عاد الى الملك مرضه واستبد دوق اوف يورك بكل شيء وترك أمر العناية بالملك للملكة على شرط أن تبقى معه ومع طفلها في هرتفورد كاسل

فبقيت هناك عامين . ولكن حدث بعدهما أن عاد الى الملك رشده . فعاد الى البرلمان وطلب استرداد سلطته الملوكية فسمح له البرلمان بها فاضطر دوق اوف يورك للاعتزال وعادت الحكومة في يد أصدقاء الملكة. وأولم الملك لدوق اوف يورك ولانصاره وليمة تعاهدوا فيها جميعاً أمام المذبح على أن يغسل الطرفان قلوبهم من الضغينة وان

يحل الصفاء محل الشقاق

ولكن هذا لم يدم أكثر من عام . وزحف أنصار دوق اوف يورك بحجة سخيفة وحاصروا لندن . فاصطدم الملك معهم في ٩ يوليو سنة ١٤٦٠ في معركة دامت ساعتين ذبح فيها عشرة آلاف انجليزي وأخذ الملك أسيراً

ولما شاهدت مرغريت ذلك أخذت طفلها وفرت الى معقل في نورث ويلز فاضطر دوق أوف يورك الملك أن يكتب أمراً يطلب فيه عودة الملكة مع البرنس الى لندن بتهمة الخيانة الكبرى . فكتب الملك وتسلمت مرغريت هذه الدعوة وهي في اسكوتلاندة تسعى في مساعدة ملكها لها . فكان جوابها على هذه الدعوة أن سارت بجيش عظيم الى يورك فدارت معركة قتل فيها دوقها . وسارت الى لندن لتنقذ الملك . وكان اليوركيون واضعين أيديهم على البلد فتسلل الملكيون الى الشوارع وحدثت حرب دموية دارت فيها الدائرة على اليوركيين فلاذوا بالفرار تاركين الملك في خيمته . ولكن أمد هذا لانتصار لم يطل فقدجاء الى لندن ابن دوق يورك بمظهر الملك فاستقبله الاهالي بالفرح والتصفيق فاضطرت العائلة المالكة أن تبحث لها عن مأوى أو مساعد فسافرت الملكة مع ابنها الى فرنسا وطلبت مساعدة لويس الحادي عشر وعادت فهزمت خصومها

ولكن انتصارها كان كذلك قصيراً فاضطرت للفرار الى حدود اسكوتلاندة ومعها كل مجوهراتها . فخرج عليها في الطريق جماعة من قطاع الطريق فسلبوها اياها واشتبكوا مع جماعتها . فهربت مع ولدها في جوف الليل الى غابة هناك ولم تكن تعرف شيئاً عن زوجها

لانه كان قد اتخذ طريقاً آخر للفرار . ولما بزغ القمر في الغابة رأت رجلا يتقدم اليها فخافت ثم تشجعت وقالت له في لهجة الملوك « هنا يا صديقي ابن ملكك فأنقذه . والى أمانتك أكله . خذه وأخفه عن عيون الذين يبحثون عنه وأمنه في محلك »

ولم يذهب نداؤها عبثاً فقادها ذلك الفارس الى مغارته . وقامت امرأته بخدمتهما . وسميت هذه المغارة بعد ذلك بمغارة الملكة مرغريت . وفي اليوم التالي التقت ببعض الاصدقاء فعلمت أن زوجها حي فعادت معهم الى اسكوتلاندة ثم الى فرنسا . ورمى بها القدر في يد خصم والدها دوق برجندية ولكنه أكرمها الاكرام كله . ومن هناك ذهبت الى أرض أبيها وعاشت مع ابنها سبع سنوات بدون لقب الملوكية

وزارها هناك بعض أنصارها وأقنعوها بالرحيل الى انجلترا واثارة معركة أخيرة حاسمة . فذهبت وكانت النتيجة ان أخذ ابنها أسيراً ثم قتل في حضرة الملك ادوارد ابن يورك ثم أسرت هي في اليوم التالي وأمر بسجنها في قلعة لندن . وفي نفس الوقت أعدم زوجها . ولكن بناء على توسلات زوج الملك ادوارد التي كانت وصيفة لمرغريت أطلق سراحها بعد أن تنازلت عن كل حق لها كسبته في انجلترا

وهكذا قدر أن تحيا هذه الملكة في الحكم وخارج الحكم في شقاء وآلام

*

ايزابلا الاسبانية

(١٤٥١ ـ ١٥٠٤)



الملكة ايزابلا

في ٢٢ ابريل عام ١٤٥١ ولدت الاميرة ايزابلا في قصر ملك كاستيل. وكان أبواها من ذرية جون اف جونت دوق لانكستر

وفي ١٠ مارس من العام التالي ولد فردناند بن الملك جون اف اراجون . واراجون وكاستيل كانتا مقاطعتين اسبانيتين

ومات أبوها وهي في الرابعة وصار أخوها هنري ملكاً على

كاستيل . ولما كان لها أخ آخر اسمه الفونس لم يكن هناك رجاء في اعتلائها العرش . فبقيت مع أمها في مدينة ارفالو الصغيرة حيث عني بتربيتها . وهناك ظلت تتعلم حتى الرابعة عشرة من عمرها

وقد ضحيت الاميرة تقريباً على مطامع أخيها الملك فقد وعدها بالزواج من رجل غني عجوز من أشرار النبلاء ، وأخذ في اقامة الترتيبات لاتمام هذا الزواج . فكان ألم الاميرة عظيماً حتى انها حبست نفسها في مقاصيرها وأخذت تتوسل الى الله بالتأوهات والدموع ليخلصها من هذا البلاء . وكأن الله استجاب لها . فقد خرج ذلك العجوز يوماً من قصره بقصد أن يرى عروسه فأصيب بالتهاب في الترقوة فمات

وجاء اليها أشراف كاستيل يسألونها ان تكون ملكة عليهم بدل أخيها الذي يكرهونه فأبت عليهم ذلك . ولما كان أخوها الفونس قد توفي فقد اضطر الاشراف الملك أن يعلن أنها وريثته في الملك وأن يعد بألا يضطرها للزواج ممن لا تريده

وطلب يدها ملك البورتغال وهددها أخوها بأنه في حالة رفضها الزواج منه سيضطر الى سجنها . ولكن القدر تداخل كذلك في هذه المرة فقد كان البرنس فرديناند اف اراجون سبق ان طلب يدها وكانت راغبة في الزواج منه . فعزمت على مخالفة أخيها بالتزوج من الامير . وتم لها ما أرادت . وحاول الامير أن يسافر الى عروسه فمانع أخوها في دخوله عاصمة بلاده . ولما لم يكن في مقدرة فرديناند أن يأخذ معه حرساً لانهماك أبيه في حرب مع النبلاء اختار أن يذهب متخفياً في زي تاجر برفقة ستة من أصدقائه .

فبلغ العاصمة بعـد مشاق وأهوال . وهناك التقى بعروسه وبقي معها ساعتين ثم خرج وأتم معدات الزواج في قصر أحـد النبلاء . وكان كلاهما بلا نقود فقد خرجت الاميرة من القصر خلسة كما سرقت أموال الامير في الطريق . فاضطرا لاقتراض النقود التي تكفي لسد نفقات العرس

وكان الامير في الثامنة عشرة من عمره تلوح على وجهه امارات الذكاء ، جميل الطلعة ، ممشوق القوام . وكانت الاميرة أقل منه عاما في السن ، وصفها أحد معاصريها من الكتاب قال : « أجمل امرأة رأيتها وأكرم واحدة في الاخلاق »

وقدتوفي أخو ايزابلا في عام ١٤٧٤ فاعتلت بعده العرش وكانت في ذلك الوقت في سيجوفيا فسافرت والشعب يهتف لها في كل مكان الى مقر الملك . فهاجمها الفونس الخامس ملك البورتغال وانضم اليه اسقف توليدو القوي فهيأت مع زوجها جيشاً التقى بجيشهما عنـد طورو . وجاء الليل وهطلت الامطار بشدة واختلط الدم بالماء وساءت حال البورتغاليين . فكتب للملكة وزوجها النصر . فأظهر فرديناند مروءة كبيرة . فكان يطعم الاسرى ويكسوهم ويعيدهم آمنين الى بلادهم . ولما علمت ايزابلا بهذا النصر أقامت الاحتفالات ابتهالا لله وخرجت على رأس المواكب حافية القدم حتى كنيسة سانت بول

وفي عام ١٤٧٩ مات ملك اراجون فترك لابنه فرديناند مقاطعات اراجون ونافارا فوحدها مع كاستيل تحت حكمه وحكم ايزابلا وبذلك تكونت مملكة اسبانية عظيمة

فأخذا يضعان تصميماً لغزو غرناطة وكانت آخر أملاك المسلمين

في بلاد اسبانيا لحاصرا ملقا وحاولا أن يرشوا قائدها فلم يستطيعا فضيقا عليه الخناق براً وبحراً حتى اضطرت الاهالي أن تأكل لحم الخيل والكلاب والقطط . وبعد أخذ ورد اضطرت الى التسليم في ١٨ أغسطس عام ١٤٨٧ ودخلاها بموكب ديني فخم

وجيء بقائد المدينة مثقلا بالقيود ، وسئل لماذا ألح في القتال ولم يسلمها فأجاب « انه أمر بالدفاع عنها حتى النهاية ولو عاون العدو لمات قبل تسليم المدينة »

وقضي على السكان جميعاً وعددهم ٢٠٫٠٠٠ نسمة بالعبودية كما اجبروا على اعتناق المسيحية . وأرسل بثلثهم الى افريقية بدل الاسرى المسيحيين هناك وبيع البعض الآخر سداً لنفقات الحرب كما أهدت الملكة بعضهم البابا وملكة نابلي وملكة البورتغال . وصودرت أملاكهم

وكأن الملك والملكة قد تعاهدا على مسح المسلمين من شبه الجزيرة لحاصرا -بعد ذلك النصر المبين- بازا ثم غرناطة ودارت بينهما وبين المسلمين معارك يشيب لهولها الطفل ، وقد لعبت ازابلا في تلك الحرب دوراً مهماً . وحسبك ان مجرد ظهورها بين الجنود الاسبانية كان يثير فيهم روح الحماسة . وكان لها خيمة في المعسكر مؤثثة أفخر أثاث . وقد حدث في إحدى الليالي أن اشتعلت النار في إحدى ستائرها الحريرية وامتدت من خيمة الى خيمة حتى باتت حياة الملكة وأولادها في خطر . فأراد الملك ان يتفادى وقوع مثل هذا الحريق فأقام مدينة حيث يعسكر ، بناها الجند في ثلاثة شهور . وقد رغبوا أن يسموها باسم إزابلا تشرفاً ولكنها رفضت

وسمتها « سانت في » تيمنا . وما زالت هذه المدينة قائمة حتى اليوم

ولما رأى المسلمون أن المسيحيين جادون في محاصرتهم وانه لا مفر من سقوط المدينة سلموا غرناطة في ٢ يناير عام ١٤٩٢ . وبذلك تم لهما الانتصار على العرب في كل مكان . عندئذ هرع أشراف الاسبانيين الى حضرة ازابلا وركعوا أمامها وقبلوا يدها ويد زوجها اعترافاً لهما بالسيادة

وحدث قبل ذلك أنه لما كان الملك والملكة في « سانت في » جاء الى معسكرهما خرستوف كلومبس وعرض عليهما فكرته المشهورة فاعتذرا باستحالة النظر في هذا الأمر الآن ، لانهما كانا في تلك الحرب فخرج كلومبس مكسور القلب يفكر في عرض أمره على ملك فرنسا . ولكنه التقى بمعلم الملكة وعرض عليه فكرته فاقتنع بها فكتب كتاباً لازابلا يحثها فيه على مساعدة كلومبس على تحقيق اكتشافه

فعاد بالكتاب اليها فطلبا اليه أن يشرح مطالبه فقال: « أريد بضعة مراكب وبعضاً من البحارة ليقطعوا ما بين ٢٠٠٠ ــ ٣٠٠٠ ميل عبر المحيط بقصد رسم طريق مختصر جديد الى الهند وكشف أمم جديدة عظيمة في الثروة والقوة . »

فقال الملك ان الحروب قد أنهكت خزائن المملكة فليس فيها ما يساعد مثل هذا المشروع . ولكن الملكة كانت قد اقتنعت بأهميته فقالت « سآخذ هذا المشروع لحساب مقاطعة كاستيل وسأرهن حلي لأمده بالنفقات اللازمة »

وعلى ذلك توقف اكتشاف القارة الجديدة على شجاعة وهمة

امرأة ! ! ودعت في الحال خرستوف وأكرمته وأعطته ثلاثة مراكب صغيرة اثنتين من الحكومة الاسبانية ، وواحدة من أحد أغنياء الاسبانيين . وكان مجموع من اشترك في هـذه الرحلة ١٥٠ رجلاً فقد كان من الصعب اقناع بحار بالسفر لما كان يشوب الرحلة من المخاطر

وسافر خرستوف ومضت عدة أسابيع لم يسمع عنه شيء . وبعد سبعة شهور ونصف شهر من سفره رجع الى أسـبانيا وكان الملـكان في برشلونة فكتبا له ليحضر اليهما . وما كاد يدخل عليهما حتى وقفا له . فقص قصته وقال انه مد مملـكتهما الى مسافات بعيدة عبر البحر

وكرر رحلته ثلاث مرات وفي المرة الاخـيرة جاءت ضده شكوى بأنه يستعبد أهالي « هايتي » فأرسل أحد الضباط ليحقق الامر . وكان حقوداً عليه فاستعمل سلطته وأمر بارساله مكبلا بالحديد الى أسبانيا . فأثار هذا العمل سخطاً في العالم . ففك الملـكان اساره وأظهرا أسفهما وعطفهما عليه . وبعد شهور قليلة سافر للمرة الرابعة وعاد من هناك وقد حطمته المخاطر والامراض والسن . وكانت ايزابلا على فراش الموت فلم يسعفه الملك بشيء . وهكذا بعد قيامه بهذا العمل العظيم يقدر له أن يجوع فيكتب لابنه يقول : «اني أعيش بالاقتراض . وما أقل ما ربحته في العشرين عاماً الفائتة في المشاق والمخاطر . فقد بت لا أملك سقفاً في أسبانيا يظلني . واذا رغبت في الاكل أو النوم فليس أمامي الا الخان ، وفي معظم الاحايين

لا يكون لديَّ ما أسدد به الاجر » . كذلك كانت خاتمة هذا البطل على الارض ! !

ولا يفوتنا كما أشدنا بذكر الملك والملكة ان نذكر شيئاً من مخازي البلاط فقد كان مشهوراً عنهما انهما مسيحيان متعصبان للكثلكة . حتى سمي الملك في التاريخ بفرديناند الكاثوليكي كما سميت الملكة كذلك . فأعادا محكمة التفتيش وهي محكمة سرية لها حق الحكم بالحياة أو الموت على كل من يمثل أمامها . وقد عذبت كل من لم يكن صادق الايمان. ومثات بالكثيرين كما ان معظم الاضطهادات كانت مصبوبة على اليهود

وقد أرخ يوم وفاة ايزابلا في نوفمبر عام ١٥٠٤

*

كترينا اف اراجون

(١٤٨٥ — ١٥٣٦)

لما سقطت مدينة غرناطة الجميلة في أيدي فرديناند وايزابلا كانت كاترينا اف اراجون في السادسة من عمرها ، وقد كانت تسير مع والديها وأختها في الاحتفال بفتح غرناطة . وقبل ذلك التاريخ قضت طفولتها في معسكرات الحرب لان أمها ايزابلا كانت تتبع زوجها في كل حروبه . وايزابلا أول من وضع نظام العناية بجرحى الحرب ومرضاها كما كانت تدفع للاطباء من مواردها الخاصة أجورهم ، وكان لها كذلك خيم مجهزة بالاسرة للمرضى والجرحى أطلق عليها « مستشفى الملكة »

وقد فتنت غرناطة فرديناند بعد فتحها فأقام بها ، ولا عجب فكانت تقوم في وسط السهل الزاهر حيث الليمون والرمان يزهران . وكانت تحيط بها أشجار الزيتون والكروم والتين والبرتقال . وكان أريج الزهور يعبق في الجو فيحلم الانسان أنه في الجنان . وكانت تحرسها الجبال المرتفعة التي تناطح السماء من الشمال كما كان يقوم من الشرق والجنوب سلسلة أخرى منها ، بينا تغسل شواطئها الغربية مياه البحر الابيض المتوسط وتمدها بالتجارة

في عروس أسبانيا وقاعدة بلاد المسلمين فيما سبق أقامت كترينا اف اراجون مع والديها وبقيت بها كل أيام شبابها

وما أشد تناقض الصورتين اللتين رسمتهما الطبيعة في حياة كترينا ، وما أقسى صروف الزمن . تلك الفتاة الجميلة المملوءة بجمال لمناظر التي حولها تنقلب الى ملكة انجلترا المهملة ، وتهجر من زوجها ، وتموت في الوحدة في عوز

خطبت الاميرة كترينا وهي ابنة تسعة أعوام الى ارثور رنس اف ويلز أكبر أولاد اليزابث اف يورك وهنري السابع . كانت تتراسل مع خطيبها باللاتينية ليتمرن كلاهما على الكتابة بها

وفي عام ١٥٠١ سافرت كترينا مع مربيتها الاسبانية ، وحاشية ن أربع سيدات ، وعدد من الاشراف ورجال الكنيسة قاصدين ندن لاتمام الزواج من الامير ، وقد تم في نوفمبر

وكانت حلة فرحها موضع دهشة السيدات الانجليزيات فقد ضعت على رأسها عصابة من الحرير الابيض ووشاحاً مطرزاً بالذهب اللآلىء والحجارة الثمينة يبلغ عرضه خمس بوصات ونصف بوصة . غطى معظم وجهها وجسمها . وكان ذلك هو القناع الاسباني المشهور. ما ثوبها فكان فضفاضاً ذا طيات كثيرة

وقد بقيت الحفلات والالعاب والولائم قائمة عدة أيام سروراً هذا الزواج . ولكن سرعان ما تلبد الجو بالغيوم ، ومات البرنس ف ويلز حيث يقيمان . ولم يكن مضى على زواجهما غير أربعة أشهر. ترمات الاميرة في أرض أجنبية . ورأت ان ترحل عن ويلز الى ندن فاستقبلتها والدة زوجها بكل عطف ولكنها توفيت بعد عامين. كان قد وعد والد كاترينا بأن يمهرها بمبلغ ٢٠٠٫٠٠٠ كرون ، لكنه لم يدفع من هذا المبلغ الا جزءاً لذلك أبى هنري السابع أن

يسمح لزوجة ابنه بنصيبها الذي أعطاه لها ارثور كهدية الزواج

وهنا جرت عدة دسائس ضد هذه الارملة الصغيرة فاعتزم هنري السابع في أول الامر الزواج منها ولكنها رفضت ذلك . فعرض أن يزوجها من ابنه هنري الذي صار أمير وياز فوافق والد كترينا ووالدتها على هذا الزواج فلم يكن بد من رضوخها . وكان قد ساء حالها لان أباها لم يدفع متأخر بائنتها فحجزعنها هنري ما كان لهاعند ابنه فباتت في حاجة الى الملابس ولم يكن بين يديها من المال ما تدفع به أجور الخدم . ولم تحرك الشفقة أحد الملكين . ولم تقو أمها على مساعدتها لانها كانت على فراش المرض

وماتت أمها ومات والد زوجها وتم زواجها بعد وفاته بثلاثة أشهر من هنري الثامن فأحبها وتفانى فيها . ودفع أبوها المبلغ المتنازع عليه من زمن . فكتبت اليه تعبر عن سرورها ، وان في طاقتها أن تدفع اليوم للخدم مرتباتهم التي طال عليها الزمن . وفي عام ١٥١٠ جاءت بأمير ولكنه لم يعش الا بضعة أيام . ومات لها طفل آخر ثم جاءت بالاميرة ماري عام ١٥١٦

وفي عام ١٥٢٢ أرسل الملك في طلب (انا بولين) من فرنسا وألحقها بوصيفات الملكة . ومنذ ذلك الحين حلت النكبات بالملكة المسكينة التي كانت آية في انكار الذات والاخلاص والامانة . فقد ابتدأ ذلك الملك المنافق بعد زواجه من الملكة بسبعة عشر عاماً يحس بوخز ضميره لاقدامه على الزواج من أرملة أخيه المتوفي مع انه ظل يغازل (انا بولين) الجميلة سبعة أعوام، وحتى عام ١٥٢٧ لم يكن أعلن شكوكه . وأخيراً تشجع وهمس برغباته الى الكردينال

ولسي فأشار عليه بالطلاق . فكان جواب ذلك المنافق : ان هذا شديد عليه ولا بأس من ركوب هذا المركب الصعب ما دام فيه اراحة لضميره

وألفت المحكمة وسيقت القسس والاساقفة والكرادلة ليصفقوا لهذه الغيرة الدينية وليصادقوا على اراحة ضمير ذلك الملك المعذب !

وليس في طاقتنا أن نذكر تفاصيل هذه المناظر المثيرة ، فلم يكن لكترينا المسكينة من يدفع عنها النكبات التي اعتزم زوجها أن يوقعها عليها . وحاول هنري أن ينتحل المعاذير لاقدامه على هذا العمل الشنيع فقال فيما قاله «انه لم يعش لهم من ستة أولاد الا واحدة هي الاميرة ماري لغضب الله على ذلك الزواج »

وفي عام ١٥٢٩ دعيت الملكة كاترينا الى المحكمة لسماع الحكم . وصاح المنادي « ياهنري ملك انجلترا ادخل الى المحكمة » فأجاب وهو على عرشه بصوت مسموع « انه هنا » وتقدم ليحط أثقاله ويريح ضميره من الناحية الدينية وقد ختم أقواله بالثناء على فضائل كترينا زوجه المحبوبة ، وان السبب الوحيد الذي يفرق بينهما هو تأنيب ضميره المعذب

وصاح بعد ذلك المنادي « كاترينا ملكة انجلترا » فقصدت حيث يجلس الملك وركعت أمامه ووجهت اليه هذا الخطاب المؤثر « مولاي أتوسل اليك حباً في الله أن تنصفني بعض الانصاف ، وأن تشفق عليّ ، وترحم غربتي ، فأنا امرأة غريبة في بلادك ، وليس لي هاد في هذه الارض ، وبما أنك رأس العدالة في مملكتك فأنا أفر اليك منك ، واحسرتاه ، اني لاشهد الله اني كنت لك في العشرين

عاماً أمينة متواضعة طائعة ، واذا كان أولادنا قد ماتوا فانه لم يكن ذلك عن تقصير في عناية الام أو نقص في حبها . ان أباك الملك كان معدوداً سليمان زمانه ، وكان أبي أحكم ملوك أسبانيا وكان لهما مشيرون حكماء كمشيري هذا الزمان ، وقد فكرا في زواجنا وعرفا انه زواج مشروع . لذلك أعجب كثيراً لهذه الدسائس التي أثيرت ضدي . أما اذا كنت وجدت أثراً للخيانة في سلوكي فأنا أرحل قانعة ، ولكن اذا لم يكن شيء فأنا أتوسل اليك بخضوع أن تدعني أبقى في محلي »

ثم نهضت باكية وخرجت ولم تعد الى المحكمة رغم صياح المنادي في طلبها . فأرسل اليها الملك الكردينال ولسي وآخرين ليعملوا معها حديثاً خاصاً . فوجدوها مع حاشيتها منهمكة في أعمال يدوية تستعين بها على قطع ساعاتها الطويلة . ولكن أولئك الرسل لم ينالوا منها جواباً

فعمل الملك كل ما يمكن عمله ليأخذ منها اقراراً بالطلاق فلم يفز منها بطائل . وفي النهاية كتب اليها يعرض عليها مسألة التحكيم فكتبت اليه: «انها لا تقبل حكاماً بينهما الا البابا في روما» فأثار الجواب ثائرة الملك فحرمها من ابنتها وأرسل أوامره المشددة بضرورة تركها القصر . فكان جوابها انه زوجي ولا بد لي ان أطيعه

وكتبت بعد طردها الى البابا كلمات تخبره بطردها من القصر . فجردها الملك من لقب الملكية وحل بنفسه الزوجية بقرار أصدره في مجمع الاساقفة . ويقول بعض المؤرخين انه قد تزوج من انا بولين قبل ان يصدر قراره بطلاق كترينا

وأبعد الملك عن كاترينا حاشيتها حتى لا تخدم بمن يلقبها بصاحبة الجلالة ، وقرر أن يرسلها الى محل مشهور برداءة جوه فرفضت وقالت انها لا تصيخ الى هذا الامر الا اذا جرت بالحبال . فعدل وأرسلها الى كمبولتن وقطع عنها ايرادها الذي يجيئها باعتبار انها أرملة ارثور فبقيت في حاجة ملحة. وكانت اذا سمعت كاترينا احدى خادماتها تلعن انا في ثورة غضب كانت تقول لها : « أمسكي عليك لسانك لا تلعنيها لانك بعد زمن قليل سترثين لها »

ولما اقتربت منها المنية أمات الى زوجها بعض كلمات مؤثرة منها « مولاي وزوجي العزيز ، أنا أسلم نفسي لك . لقد دنت ساعة وفاتي ، وحبي لك يدفعني الى كتابة بضع كلمات ترد عليك أمنك وصحتك بسبب طرحك اياي في عدة آلام ، وطرحك نفسك في عدة هموم ، أما عني فأنا أسامحك وأسأل الله ان يسامحك ، وأما عن الباقي فأنا أسلم ماري ابنتك لعنايتك راجية ان تكون لها أباً طيباً ، كما أرجوك بالنسبة لخادماتي أن تمهر ثلاثة منهن وأن تعطي الأخريات أجرة عام فوق استحقاقهن الخ »

ولفظت النفس الاخير في عام ١٥٣٦ ومهما قيل عن الملك هنري وانه بكى عند قراءة خطابها فانه كذلك يقال انه حاول أن يوقع الحجز على أمتعتها القليلة كما حاول أن لا يدفع ما جاء في وصيتها

وقد كانت حياة المرأة التي خلفتها حياة قصيرة مملوءة بالاحزان فلم يمر أربعة أشهر على وفاة كترينا حتي لقيت انّا مصرعها فقد وقعت عين الملك على جين سيمور فنبذ انّا وقضى عليها بالاعدام . وهكذا للقدر تصرفات يغيب فهمها على كل انسان

*

كترينا دى مديسى

(١٥١٩ — ١٥٨٩)



كترينا دي مديسي

كانت كترينا دي مديسي امرأة مجردة من كل غريزة نسائية ، وفضيلة انسانية . فكانت «مدوسا» الهائلة مجسمة . فقد قتلت كل احساس رقيق وعاطفة نبيلة في قلوب الذين كانوا حواليها

تلقنت مبادىء ماكفلي التي تقول بالقوة والخداع والقسوة والمواربة لبلوغ الغاية ، فوعتها وزادت عليها فيما بعد مبادىء تعبر عن الشرور والآثام . حتى صارت فظائع محكمة التفتيش في أسبانيا تتضاءل أمام فظائع مذبحة سانت بارثولوميو التي أثارتها . وصار

فيليب الثـاني « شيطان الجنوب » كما كانوا يدعونه شيئاً لا يذكر أمامها . لانه على الاقل كان يزعم انه يدافع عن الدين فـكان يرى في محكمة التفتيش أداة لنصرة الـكنيسة الـكاثوليكية . أما كترين فامرأة لا دين لها ولا ايمان فلاهي تهتم بالـكاثوليك ولا بالبروتستانت ولا بكنيسة روما ولا بالاصلاح . انما كل اهتمامها كان في اشباع شهواتها الشريرة

وكترينا هي ابنة لورنزو دي مديسي حاكم فلورنسا . فقدت والديها وهي صغيرة فأرسلت الى أحد الاديرة لتتلقى العلوم هناك ثم تزوجت من دوق أورليانس الذي صار هنري الثاني ملك فرنسا وذلك في عام ١٥٣٣ وكانت يومئذ في الرابعة عشرة . ولم يظهر لها أثر في ميدان السياسة في عهد فرانسيس الاول ملك فرنسا . ولم يعلق أحد أهمية على سكوت هذه الايطالية الجريئة

ولم يكن زوجها ليرث الملك لولا تصرفات القدر التي قضت على أخيه قبل أن يموت فرانسيس الملك نفسه . وعلى ذلك لما قضى الملك نحبه في عام ١٥٤٧ توّج زوجها باسم هنري الثاني ملكا على فرنسا وقد عاشت في مدة حكمه عيشة منعزلة ، حيث لم يكن لها أي نفوذ على الملك الذي كان واقعاً في شراك ديانا دي بواتيه التي كانت على شيء كثير من بعد النظر وحدة الذكاء . فـكانت في الواقع ديانا هي ملـكة فرنسا . ولم تظهر كاترينا شيئاً من عدم الرضا بالنسبة الى التي اغتصبت محلها ولـكنها كانت تنتظر دورها وتترقب الحوادث بهدوء ، حتى انها توددت لديانا وصادقتها

وكان زوجها قاسياً فقد أقام أول احتفال في باريس بعد تتويجه

فحرق ستة من الخوارج على مرأى من الجمهور ، وأنشأ غرفة خاصة في البرلمان أسماها « الغرفة المضطرمة » وكان يجلس في نافذة فندق دي لاروش بوث في شارع سانت انطوان التي تطل على محلة التنفيذ ويراقب منها تلوي الخوارج وهم يحرقون . ولكن كل هذه الاضطهادات لا تقاس باضطهادات كترينا دي مديسي وحتى اذا قيست بأعمال هنري الثاني كانت أعماله كلها براً بالانسانية

وأول دور سياسي لعبته كترينا دي مديسي عند ما ذهب زوجها الى كومبين ليثير حماسة الجيوش ، فقد كانت الانباء وردت على باريس بسقوط سانت كوينتين في الحرب التي كانت قائمة بين ملك فرنسا وبين فليب الثاني ملك أسبانيا . فقد فر كثير من المدينة في حالة ذعر بفكرة ان الاعداء قد تقدموا . عندئذ ذهبت كترينا الى البرلمان برفقة الكرادلة والامراء والاميرات ووجهت الى أعضائه نداء مؤثراً مظهرة الحاجة الملحة لمساعدة الجنود فأمر لها البرلمان بمائة الف كرون لهذا الغرض

ومنذ ذلك اليوم تغير مركز كترينا فقد قدر الملك عند عودته حكمتها وأظهر لأول مرة نحوها شيئاً من العناية

وبعد أن مات هنري الثاني تولى العرش بعده الامير الفتى باسم فرانسيس الثاني ، ولم يطل عهد حكمه ومات في أقل من عام وجاء بعده أخوه شارل وتوج ملكا باسم شارل التاسع . ولم يكن لكترينا نفوذ على فرانسيس الثاني لانصرافه عنها بامرأته أما على خلفه شارل الذي كان في العاشرة من عمره فقد كان لها عليه النفوذ كله فقد أمسكت زمام الحكومة في يدها فتكشفت أخلاقها الحقيقية

وكانت أوربا في أواخر القرن السادس عشر غارقة في النزاع القائم بين الكاثوليك والبروتستانت ، وكان عدد البروتستانت الهوجونوت كثيراً في فرنسا ، وكان زعيمهم برنس دى كوندية

ولم يكن لكترينا مذهب ديني تدافع عنه بل كان دينها المطامع الاشعبية فأخذت تناصر الكاثوليك لانهم كانوا يكوّنون الاغلبية

وابتدأت أولى المعارك الدينية في عهد شارل التاسع في عام ١٥٦٢ قتل فيها أحد شباب البروتستانت زعيم الكاثوليك

وفي عام ١٥٦٨ تسلمت كترينا قيادة جيش الكاثوليك ، فتصادم الجيشان وانتهى الامر بهزيمة البروتستانت وذبح زعيمهم برنس دي كوندية . فألهبت ملكة نافار جيش البرتستانت بخطاب مؤثر وبذلت العطايا بين قواده حتى أثارت فيه روح الحمية

ولما رأت كترينا فعال ملكة نافار حذت حذوها وخطبت الجيش ووزعت الهدايا ، ولكن الجيش كان ساخطاً عليها ، ويبدي لها الطاعة خوفاً منها

فعاد والتقى الجيشان المتخاصمان فهزم البروتستانت مرة أخرى وجرح قائد جيوش الاصلاح جرحاً خطيراً نقل على أثره من ميدان القتال الى داره . وكانت دهشة الكاثوليك شديدة عند ما رأوه بعد أسبوع يحارب ضدهم . ومدت ملكة نافار الجيش بجيش ثالث فابتدأت كفة البروتستانت ترجح ، فطلبت كترينا الصلح « وكان هذا أول فصل من مأساة سانت بارثولوميوالفظيعة »

وأخذت في تمثيل دورها الدموي الثاني وكان سلاحها في ذلك الدور الموت والزواج . فتوجهت بنظرها الى أمير نافار الفتى ودعته الى

ببلاطها وعرضت عليه يد ابنتها مارغريت وكانت آية في الجمال وذلك نتيجة تدبير لها سابق مع ابنها شارل . ونجحت في تدبيرها وأعلنت أن البرنس صار ابنها. ولم تكن أمه مستريحة لهذا الزواج ولكن الاعتبارات التي ذاعت جعلتها توافق في النهاية فقد قيل ان زواجاً كهذا سينهي الاعتداءات على البروتستانت كما يحفظ فرنسا من سفك الدماء

ولم يكن هذا الزواج الا ستاراً لما يدبر وراءه من اهلاك للبروتستانت ودعك من تصريح شارل « أنا أزوج أختي لا لبرنس دي نافارا فقط . ولكن لأي واحد من جماعة البروتستانت . فان هذا سيكون أقوى عامل لحصول الصلح بين رعاياي ودليلا أكيدا على حسن طويتي نحو البروتستانت »

وفي الوقت نفسه أخذت كترينا وابنها يغريان زعماء البروتستانت على القدوم الى باريس ضيوفاً في حفلة الزواج . واستقبل شارل ملكة نافارا بمظاهر الود والترحاب وكان يدعوها خالتي العظيمة والمحبوبة . ويقال ان الحوار الآتي دار بينه وبين أمه

قال شارل ضاحكا : « أماه أتريني قد أجدت تمثيل دوري »

فأجابت « حسناً ولكن ما قيمته اذا لم يستمر »

فقال : « اسمحي لي أن أستمر وستريني أتصيدهم »

وقد صدق وتصيدهم . فلم تكد تدخل ملكة نافار الى المكان المعد لها في ضيافة كاترينا حتى أصيبت بحمى شديدة استمرت تسعة أيام ثم ماتت على الاثر

ولم يكن ابنها قد وصل بعد الى باريس فأظهرت كترينا شيئاً كثيراً من مظاهر الحزن ، وكم صاح وندب ابنها شارل وفاة الملكة . ورغم

هذه المظاهر الكاذبة فقد شاع في كل أوربا أن كترينا قد سممت ضيفتها فتأخرت حفلة الزفاف قليلاً ثم أخذ في انجازها وجاءت كبار البروتستانت والكاثوليك من أنحاء أوربا لشهودها . وتم الزواج ولكن فصول الرواية لم تتم . فقد أصيب الاميرال كوليني برصاصة من نافذة وفر القاتل وأظهرت الملكة كالعادة مقتها لهذه الاعمال . وبينا ملكة نافار (ابنة كترينا) تؤكد للاميرال مقت أمها وأخيها لهذه الاعمال الطائشة كان الاثنان في جلسة سرية يتباحثان بشأن هنري زوجها . وهل يقتلونه أو يبقون على حياته ، وفي النهاية قررا سجنه حتى يضطر الى طرح عقيدته البروتستانتية

وصدرت الاوامر السرية للكاثوليك في أنحاء فرنسا « بأن يلبسوا صايباً أبيض على القبعة ، وأن يضعوا على أذرعهم رقعة قماش بيضاء » حتى يتمكن تمييزهم في الليل . وانه عند ما يدق الجرس في الساعة الثانية بعد نصف الليل من برج دار العدالة يكون ذلك بمثابة الاشارة المتفق عليها فيقومون في الحال بذبح البروتستانت في كل فرنسا ولا يبقون على الاولاد ولا النساء ولا الاطفال

وفي هذا الوقت الذي كانت تدبر فيه كاترينا هذه المؤامرة قامت بتوزيع العطايا والهدايا بين أشراف البروتستانت وقوادهم . كما دعاهم شارل في قصر اللوفر قبل وقوع المذبحة بايلة الى حفلة شائقة

وكان هنري يشك في نيات كترينا وشارل . وكانت امرأته لا تدري بما يدبر في الخفاء حتى ان أختها الصغيرة قالت لامها إنها تخشى أن تضحي أختها فيما لو افتضح الامر . ولكن كترينا كانت تفضل ان تضحي بابنتها ولا يصيب تدبيرها الفشل

ولما اقتربت الساعة تردد شارل فقالت له أمه : «أجبان أنت ؟» فقال : « حسناً فلنبدأ » ووقعت مذبحة سانت بارثولوميو الشهيرة في الموعد المضروب في ٢٤ أغسطس من عام ١٥٧٢ وهو يوم عيد القديس بارثولوميو ولذلك سميت باسمه

وطبق الشوارع صدى كلمة « اقتل : اقتل ! » وأزعج صوت ملكة نافار عند بابها ينادي نافار نافار فحسبته زوجها فأمرت الخدم أن يفتحوا له الباب فاذا هو بروتستانتي يلوذ بها وقد خر راكعاً عند قدميها والجند الكاثوليك من ورائه . فتوسطت له عندهم فتركوه . ويقصر القول في وصف هول هذه الليلة فقد كان يلقى بالجثث من النوافذ حتى تكدست بها الطرق . وجرت الدماء أنهاراً ، وكان يلعب بالرءوس الآدمية في الطرقات كالاكر . وقد استمرت هذه المذبحة أسبوعاً وقدرت ضحايا البروتستانت بمائة ألف نسمة . ففزع البروتستانت في كل أوربا وعلت صيحاتهم فلم يكن لمذبحة سانت بارثولوميو مثيل في التاريخ . وفي صباح يوم المذبحة دخل بعض الجند المدججون الى غرفة ملك نافار وحملوه الى حضرة ملك فرنسا فأمره أن يحقن دمه بترك العقيدة البروتستانتية وأعطاه ثلاثة أيام مهلة ليفكر في الامر . وقد انتهت بتسليمه بما أراده شارل

وبعد عامين من هذه المذبحة مات شارل . ويقال انه لم تمر عليه ساعة لم تكن تزعجه فيها الاحلام . وتقول خادمته إن وخز الضمير هو الذي قتله . واذا صح ذلك أو لم يصح فان الذي قد ثبت أن أمه لم تتأثر قط ولم يؤنبها ضميرها وقد ماتت واسمها مبغوض من الكاثوليك والبروتستانت على السواء

مارى ستيورت

(١٥٤٢ — ١٥٨٧)



ماري ستيورت

ولدت ماري ستيورت ملكة اسكوتلاندة المنكودة الحظ في ٧ ديسمبر عام ١٥٤٢ في قصر لنلتجو وهي حفيدة هنري السابع ملك انجلترا

مات أبوها جيمس الخامس بعد مولدها ببضعة أيام وتوجت ملكة وهي ابنة تسعة أشهر . وبينا كانت المظاهر الملكية تجري من حولها فمن تاج يعقد على جبينها الى صولجان وسيف يتناسبان مع

يديها الصغيرتين ، وبينا كبار الدولة يركعون لها احتراماً ، وأمراء بيت الملك يعدون الفوز بقبلة من خدها شرفاً كبيراً ـ كانت هذه الطفلة تبكي خائفة مما حولها . مسكينة الملكة الطفلة بدأت الحكم بالدموع وانتهت بخشبة الاعدام

وابتدأت أعباء السياسة تحط عليها وهي في الخامسة من عمرها فخطبها ولي عهد ملك فرنسا الذي صار فرنسيس الثاني . ولما صارت في السادسة من عمرها أرسلت الى فرنسا لتتعلم هناك وقد اشتهرت في ذلك الوقت بجمالها وذكائها . وصحبها في السفر أربع بنات صغار من الطبقة الرفيعة كانت أسماؤهن ماري فعرفن « بماريات الملكة » وظلت تلك عادة بحيث اذا تزوجت احداهن جيء بماري أخرى تحل محلها

وقد أدهشت السفراء الاجانب والبلاط في فرنسا عند ما ألقت خطبة باللاتينية من تأليفها أمام الملك وكانت يومئذ في الثانية عشرة من عمرها

ولما بلغت السادسة عشرة تزوجت من ولي العهد فرنسيس الذي كان في الخامسة عشرة وقتئذ ، وكانت حفلة الزفاف آية في العظمة والابهة . وعقب تلك الحفلة حفلات ومآدب . ولكن الحوادث أخذت تمر سراعاً فعقب الافراح مآتم

ومات ملك فرنسا وتوج زوج ماري ملكا باسم فرنسيس الثاني ولكنه لفظ النفس الاخير قبل ان يتم عاماً على العرش وترمت بعده الملكة الاسكتلاندية الجميلة . وكانت أمينة مخلصة لزوجها متفانية في حبه وذلك باجماع الاقوال ، حتى ان أخا الملك كان اذا

وقع نظره على صورة لماري يناجي أخاه قائلاً « آه يا فرنسيس ! ما اسعدك أخاً ! فمع أن حياتك وحكمك كانا قصيرين الا انك كنت تحسد عليهما - ذلك انك كنت تستحوذ على ذلك الملاك وحبه »

وعادت ماري بعد وفاة زوجها الى بلادها ومنذ ذلك اليوم بدأ اضطهاد اليزابث لها . فقد أرسلت ماري ترجو ملكة انجلترا أن تسمح لها بالمرور في أملاك ابن عمها في طريقها الى بلادها . فأبت عليها اليزابث هذا الرجاء ورفضته بشدة . ولما بلغت ماري اسكوتلاندة وتسلمت السلطان هناك حاصرها جيش من المحبين ، فطلب يدها ملك السويد وفيليب الثاني ملك أسبانيا والارشيدوق شارل ابن امبراطور ألمانيا . وكان بعض هؤلاء من محبي ملكة الانجليز . فعدت اليزابث هذا اهانة لها وأوقعت الاثم على رأس ملكة اسكوتلاندة التعسة . وابتدأت تدس لها الدسائس وادعت انه لا يحق لماري أن تتزوج ممن سبق أن رفضته . وفي النهاية صممت ماري على معالجة المسألة بنفسها فتزوجت من ابن عمها وارنلي لانها كانت تحبه . وكان فتى يخفي جمال وجهه ضعفه ولؤم طبعه

وليس في مقدورنا أن نحصي المحاولات العديدة التي نزلت بها بسبب ضعف زوجها ودسائس أبيه مع أشراف اسكوتلاندة الذين كانوا يرغبون في اهلاكها لانها كانت كاثوليكية . ولم يكن ذلك عن غيرة دينية منهم ولكنهم كانوا يريدون بذلك أن يجذبوا اليهم الجمهور ويكرهوها على النزول عن العرش ، ويولوا ابنها ملكا ، وبذلك يقبضون على الحكم

ولم يكن سلوك ماري بعد عودتها الى اسكوتلاندة بعيداً عن
ظنة الريب فلم تكن سعيدة في حياتها الخاصة . كما كان ينظر أشراف
روتستانت الى زوجها بعين الحذر

وبازدياد حذرها كل يوم من زوجها أصبحت لا تثق به فسارت
خطوة أخرى غير موفقة حيث اختارت مستشاراً مالياً لها اسمه دافيد
يزيو وكان ايطالياً كاثوليكياً . فأثار هذا حقد دارنلي فتآمر مع
لحزب البروتستانتي - عدوه السابق - وفي يوم من أيام شهر مارس
ام ١٥٦٦ هاجموا غرفة طعام ماري وجروا ريزيو من هناك جراً
وقتلوه . فأخفت جزعها وساعدت زوجها على الفرار من
جه أعدائه - وبعد شهور قلائل جاءت بابنها الذي صار جيمس
سادس اف اسكتلاندة وجيمس الاول اف انجلترا . وعاش هذان
زوجان المتنافران معاً بقية ذلك العام . ثم مرض دارنلي فنقلته
اري الى ادنبره وأسكنته هناك بيتاً صغيراً ولم يمض وقت طويل
حتى سقط عليه البيت نتيجة انفجار فقتله

فثارت الشبهة حول الملكة وأكد خصومها انها وجدت محباً
جديداً في ارل اف بوثول . وكان متهماً بالقتل فبرىء ثم طلق زوجه -
بروس عام - وبعد ثلاثة أشهر من وفاة زوج الملكة ماري تزوج
منها . فأثار عليها هذا التصرف الاخير كل الاشراف من بروتستانت
وكاثوليك فأرادت أن تهيء لهم جيشاً ولكنه ذاب قبل الاشتباك
فاضطرت الى التنازل عن العرش في عام ١٥٦٧ من أجل طفلها

ويلصق بها خصومها ثلاث تهم : فيتهمونها بالقتل والدعارة
والدسائس السياسية وهذه أشنع الجرائم التي يمكن ان تلصق بامرأة .

وقد حاول بعض المؤرخين أن ينتحلوا لها المعاذير ولكنهم لم يفلحوا . وقد تقوّت البروتستانتية بسقوطها لانها كانت كاثوليكية متعصبة

وسجنها بوثول في قلعة فانقذها من يده ومهد لها سبيل الفرار جماعة كانت خطتهم أن يحصلوا على الحكم بالحصول على الملك الطفل . وقد انتقلوا الى انجلترا وحاكوا مؤامرتهم مع الملكة اليزابث . ورأت ماري أن أنصارها قد تفرقوا من حولها وخانها حزبها فتطلعت في الافق فلم تجد الا اليزابث التي تظاهرت بالعطف عليها . واليزابث امرأة وابنة عمها وملكة فلماذا لا تنقذها ؟ ففرت اليها وأسلمت نفسها لعدوتها اللدودة اليزابث

وبذلك انتقلت من سجن الى سجن فقد صار يضيق عليها وينقص في احترامها يوماً بعد يوم . وطال سجنها الذي بقيت فيه تسعة عشر عاماً . وأخيراً قدمت للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى . ويقال انه لم يكن هناك محامون عنها ولا مستندات ضدها . فطلبت ماري أن تقول كلمتها أمام البرلمان وان يسمح لها بأن ترى الملكة في سجنها فأبوا عليها ذلك . وصدر ضدها الحكم بالاعدام . وحاول هنري الثالث ملك فرنسا في ذلك الوقت ان يوقظ شيئاً من الاحساس في قلب ابنها الفتى جيمس السادس اف اسكوتلاندة بالنسبة لامه ولكنه فشل . ويقول بعض الكتاب ان جيمس السادس بذل بالفعل مجهوداً في هذا السبيل ولكنه كان ضعيفاً فقد صيرته اليزابث ووزراؤها غير منتج

ولما قرىء الحكم على ملكة اسكوتلاندة التعسة رسمت الصليب

في هدوء وقالت « أما الموت فاني أرحب به ، ولكني لم أكن أتوقع أن تدبر أختي اليزابث هذا بعد سجني عشرين عاماً » ثم وضعت يدها على كتاب بجانبها وأقسمت انها لم تفكر قط ولم تحاول قتل اليزابث

فكان جواب ارل اف كنت « هذا انجيل بابوي فيمينك لا قيمة لها »

فأجابت الملكة في عظمة « هذا انجيل الكاثوليك . وبما اني أعتقد انه الحق فيميني صادقة يرتكن عليها »

ويقول بعض الكتاب ان اليزابث نفسها لم توقع على ورقة اعدام ماري ولكن امضاءها قد زوّره توماس هاريصن سكرتير السير فرنسيس والنجهام . فقد جاء في مذكرات هاريصن بعد عشرين سنة من مقتل ماري . بأن سيده قد استخدمه في تزوير امضاء الملكة على ورقة اعدام ملكة اسكوتلاندة حيث لم يقدر أحد من الوزراء على استمالة اليزابث لامضائها . وانه قد عمل هذا بموافقة أربعة من كبار وزراء الدولة المسئولين

ولكن هذا القول فيه نظر فانه لم يثبت انها غضبت على وزيرها من جراء ذلك . وقد كانت رغبة اليزابث طول عمرها موت ماري فلا معنى لتحمل أسباب التبرئة بحياكة مسألة التزوير مما لا يكاد يجوز على قارىء التاريخ المدقق

وفي الساعة السادسة من صباح ٨ فبراير سنة ١٥٧٨ قالت ماري للذين حولها انه قد بقي لها في حياتها ساعتان وطلبت اليهم ان يساعدوها على لبس ثياب الاعياد . ولما ترددوا صرخت فيهم « أنا

قريبة ملكتكم وفي عروقي الدم الملكي وكنت زوج ملك فرنسا وملكة اسكوتلاندة فأخجلهم قولها ولم يردوا طلبها الاخير

وقالت وهي على خشبة الاعدام لخادمها ملفيل « لا تبك من أجلي لا تبك يا ملفيل بل افرح لانك ترى نهاية آلامي الطويلة . واعلم ان هذه الحياة ليست الا غروراً فهي ملأى بالاحزان . أنا كاثوليكية وأنت بروتستانتي ولكن بما انه لا يوجد الا مسيح واحد فأنا أسألك باسمه أن تشهد اني أموت ثابتة على ديني أمينة لاسكوتلاندة وأمينة لفرنسا . واذكرني عند ابني العزيز واضرب له مثلي وقل له اذا شاء المعونة فليطلبها من الله ولا يطلبها من انسان »

ولم تضعف ماري عند تنفيذ الحكم عليها ولا ترددت ولا بكت ولكنها كانت تتمتم « أكل روحي اليك يا مولاي »

وقد أخطأ الجلاد في ضربته الاولى فسبب جرحاً عميقاً في الجمجمة ولكن الملكة لم تتأوه ولا صرخت من الالم . وان تكن آثاره قد بدت على تقاطيع وجهها . وأصاب « القصاب » بغيته بعد الضربة الثالثة وبقيت الرأس معلقة وحدها فنادى في الناس « هكذا يموت كل خصوم الملكة اليزابث »

*

الملكة اليزابث

(١٥٣٣ ـ ١٦٠٣)



اليزابث

من الادوار المهمة في التاريخ الانجليزي عصر الملكة اليزابث . وهو يعرف « بالعهد الاليزابثي » فحول هذه المرأة تجتمع عدة أسماء مشهورة وحوادث كبيرة كما حدث في العهد الفكتوري

واليزابث تيودور هي ابنة هنري الثامن ولدت في عام ١٥٣٣ ولقبت في يوم مولدها باميرة انجلترا وأوصى ابوها الملك بعد ذلك بعدم

وراثتها للعرش معتبراً اياها غير شرعية كاختها ماري من كاترين أف اراجون .

أحبت لورد اميرال سيمور وأقرت بحبها فعارضها البلاط ووضعها في شبه سجن

ولما اعتلت ماري العرش ووقعت ثورة « ارياط » يقال انها حجزت الاميرة اليزابث وراقبت رسائلها حتى انها لقيت صعوبة هائلة في الاتصال بالملكة . وفي اثناء هذا الحجز جاءتها رسالة من الملكة تقول لها فيها انها تطلق سراحها اذا قبلت دوق سافوي زوجاً ولكن كبرياء اليزابث أبى عليها قبول هذا الزواج الارغامي ورفضت أن تشتري حريتها بمثل هذا الثمن وفضلت السجن عليه . وبناء على مساعي زوج ماري أطلق سراحها ودعيت الى حفلة شائقة في القصر كان فيها الدوق أحد المدعوين

ولم يطل عمر ماري وانقلب بعدها زوجها محباً لاليزابث ولكنها أعارته اذنا صماء فانقلب عليها وصار من أشد اعدائها

ولما صارت ملكة على انجلترا رفضت باباء أيدي الدوقات والارلات والملوك وعاملت ملك السويد الذي كان مفتوناً بها معاملة سيئة . فقد أرسل اليها هدية عظيمة تتألف من ١٨ حصاناً ومركبين محملين باثمن ما تنتجه بلاده . فقبلت الهدية وكتبت الى ذلك المفتون : « إنها تأمل وهي آسفة أن يوفر على نفسه مشاق رحلة غير منتجة » وأغرب ما في هذا الادب الملكي أن تقبل العطية وترفض المعطي .

وطلب اليها البرلمان الانجليزي أن تتزوج ولكنها اعتذرت

وخذلت كل من تقدم من الملوك يطلب يدها . والرجل الوحيد الذي كانت ترغب في الزواج منه هو ددلي الذي جعلته فيما بعد ارل اف ليسستر ولو لم يكن متزوجاً لتزوجت منه في الحال . وحدث أن ماتت زوجه فجأة فاذيع أنه قتلها وفزعت النفوس منه فخافت الملكة على كرامتها ولم تستطع الزواج منه . ورغم كل الدسائس التي احيطت به ظل حافظاً مكانه في القصر مقربا من الملكة حتى مات مع ما اشتهر عنه من المؤامرات الدنيئة والادعاءات الكاذبة

وقد كتب روجراشام مؤدبها عن محصولها في الادب والعلم يقول : « لقد أتمت اللادي اليزابث سن السادسة عشرة فلم يشاهد قط في مثل هذا السن المبكر حياء مقروناً بالكرامة كما شاهده فيها . كانت مغرمة بالدين الصحيح وبأرقى انواع الادبيات . وتكون عقلها خلو من الضعف النسوي وهي امرأة موهوبة فليس أسرع منها في الفهم ولا أقوى منها في الذاكرة ، تتكلم الايطالية والفرنسية كما تتكلم الانجليزية وكذلك اللاتينية كما كانت تتكلم معي في الغالب باليونانية . وخطها سلسل سواء أ كان بالحروف اللاتينية أم اليونانية . وقد قرأت معي كل سيشرون وجانباً كبيراً من ليفي . ومؤكد أن معرفتها اللاتينية ترجع الى هذين المؤلفين الخ »

تولت اليزابث الحكم وهي في الخامسة والعشرين من عمرها فارسلت اخطاراً عاديا بارتقائها العرش الى بابا روما فارعد البابا في جوابه لتجرئها على قبول التاج بدون إذنه . فكان جواب اليزابث أن اطلقت على نفسها لقب « رأس الكنيسة » واختارت لها شعاراً على النقود « اصطفيت الله عوني » . ولما دخلت الى القصر الملكي

كملكة قالت « لقد سقط اناس في هذه البلاد من صف الامراء وسجنوا في ذلك القصر ، اما انا فقد انتقلت من سجينة في هذا القصر الى ملكة على هذه البلاد . لذا لزم أن أقر لله بالشكر وان اكون رحيمة بالناس »

وكان الشعب عند ما ارتقت العرش منقسما في افكاره الدينية تبعاً للانقلابات اللاهوتية التي وقعت في الاثنتى عشرة سنة الاخيرة . فأمرت بان لا يعظ احد قبل أن يأخذ ترخيصاً . وكانت تكره الوعظ والوعاظ وتقول : « إن اثنين او ثلاثة يكفون كل المملكة .

وكان عهد اليزابث كما سبق أن قدمنا عهداً مخصباً في الحوادث العظام ونبغاء الرجال . « كان عصر الشجاعة والعبقرية » عصر عجائب الفكر والانقلابات الغريبة والمشروعات الجريئة والمنازعات الدينية والسياسية . أنتج شكسبير أول الشعراء وباكون الفيلسوف العظيم ، وهوكر اللاهوتي ودريك البحار ، وجريشام التاجر الكبير ، وسبنسر ورالاي واسكس وكلهم من نجوم التاريخ

كما انا نرى في البلاد الاخرى أمثال لوثر المصلح ، وسلي السياسي وميشيل انجلو نابغة التصوير ، وبلاسترينا مبدع الموسيقى الايطالية . فكل هؤلاء كانوا معاصرين لبعضهم . فكان عصراً عظيما . وكانت اليزابث عظيمة بعصرها . والعهد الاليزابيثي عهد مشهور بالآداب

وتقدمت الملاحة والصناعة والتجارة في غضون حكمها فقد طاف المكتشفون الانجليز حول الارض . وهي أول من انشأ العلاقات التجارية مع روسيا وتركيا وأول من أرسل سفراء اليهما . وجاءت المرايا واكواب فنيسيا الى انجلترا وكذلك الخزف والتيل ولكن

مما يستملح ملاحظته انه مع كل هذا التقدم لم تكن « الشوك » معروفة هناك بعد . فكانت لا تزال تأكل الملكة وحاشيتها الانيقة بايديهن ! !

وقدم اليها أول جورب من الحرير عمل في انجلترا وكان ذلك في عام ١٥٦٠ فسرت به سروراً بالغاً ولم تعد تستعمل غير الجوارب الحريرية

ولم تكن تناصر المعمار كثيراً . وانما شجعت فن الرسم لتفنن وكثرة تصوير الرسامين لها حتى كثرت صورها في السوق وظهر بينها صور عاطلة من روح الفن بالمرة فاضطرت أمام ذلك أن تصدر قراراً بعدم تصويرها حتى يعمل لها مثال من مصور ماهر يحتذى عليه . غير أن مصوريها لم يكن في طاقتهم أن يداهنوها كما داهنها شعراؤها

وقد أزعجها منظر وجهها في المرآة عند ما تقدمت في السن فلم تعد تستعمل المرآة في أواخر أيامها . ومع ذلك فان المتملقين حولها كانوا مضطرين أن يخاطبوها بربة الجمال . وظهر أنها كانت بالفعل وهي في الخامسة والستين تحاول أن تلعب دور فينوس

وكانت تمتاز حفلاتها اليومية «بالخدمة الشرقية» فكانوا يخدمون على المائدة ركعاً حتى وزراؤها كانوا يخاطبونها راكعين . وقد أعفي من هذا الرق اللورد بورلاي لما صيره السن والمرض عاجزا ولم تستثن غيره

ومن المقربين منها حبيباها ليستر واسكس ، وكان الاول خائنا لا وزن له ، أما الآخر فكان أكبر من أن يتحمل صلفا .

ولذلك كان يشاهد عليه امارات الثورة عندما يجثو عند قدميها . وقد لطمته يوما على أذنه فقال في غضب : « ما كنت لأقبل هذا من يد الملك أبيها ولا أقبله من يد امرأة أنا مدين لجلالتها بواجب الأرل . ولكني لن أخدمها قط كعبد »

ولكن المرأة لا تعارض . فقد قضي على اسكس وان يكن موته قد ملك على الملكة مشاعرها . وكانت قد أعطته خاتماً وأمرته أن يبعث به اليها اذا وقع في محظور . فلما حكم عليه بالاعدام بعث به اليها ولكن الخاتم مر بيد احدى الوصيفات التي كان زوجها خصما لاسكس . فلم يصل الخاتم الى الملكة ونفذ في اسكس الحكم . وقد اعترفت الوصيفة بذلك في ساعة وفاتها فكان حزن الملكة وأسفها شديدين

وفي أيامها أتم السير فرانسيس دريك رحلته حول الارض وقام السير والتر رالاي برحلاته المهمة . وهو الذي أدخل الدخان الى انجلترا . وقد عمل مع الملكة رهانا على أن في استطاعته أن يعرف وزن الدخان الذي يخرج عند التدخين . وكان أن راهنته فوزن التبغ قبل التدخين ووزن ترابه بعد التدخين وقال لها ان الفرق بين لوزنين هو مقدار الدخان فدفعت له الرهان وقالت له : « انها تعرف كثيراً من الناس يحولون ذهبهم الى دخان . أما هو فاول من عرفته يحول الدخان الى ذهب »

وقد رسم كاتب كبير الفكرتين المتناقضتين عن خلق اليزابث قال : « كانت عندنا فكرة منذ الصغر بان حكمها سيكون ممتازاً في التاريخ . وقد سمعنا في الوقت الاخير عن شهرة العهد الاليزابيثي في الآداب . وحكمة اليزابث وشجاعتها وتدبيرها ، وحبها للوطن ،

وروحها القوى ، وقوانينها العجيبة وحكومتها اليقظة . ونجاحها في الداخل والخارج وفي حروبها وتحالفاتها مع أعظم وأقوى أمراء زمانها ومركز انجلترا العظيم الذي جعلها كمعقل للاصلاح الديني وعظمتها كحامية البروتستانت وموقفها العظيم في الدفاع عن الايمان الأهلي والاستقلال لما هزمت الارمادا الاسبانية في عام ١٥٨٨ . كل هذا معروف عند شباب الناس منذ ابتدءوا يدركون ، فقد ترك أثراً في الطفولة لا يمحى . ولما كبرنا وعرفنا تفاصيل التاريخ ابتدأنا ندرك معاني أخرى في هذه الاسماء والاعمال العظيمة . فقد رأينا على عرش انجلترا امرأة صيرها طمعها وغيرتها وحسدها وحقدها وقسوتها محتقرة ذميمة . فانا نجد انجلترا بلاد الحرية محكومة كاحدى الولايات التركية حكماً مطلقاً بهذه السلطانة العاتية ووزيرها الاكبر بورلاي . ونرى الدم البشري يجري على خشبة الاعدام كما يجري الماء ، والاضطهادات والتعذيب ، والموت ينزل بالناس باسم الدين ونرى رجالا عظاما ، أسماؤهم فخر هذه البلاد قد أهملوا الاهمال كله بينا يمرح بالسلطان محب لا وزن له . قرأنا هذه الاشياء وتعلمناها فتملكتنا الدهشة . ووجدنا التوفيق بين هذه المتناقضات البينة من الصعوبة بمكان »

وجاء في كتاب تاريخ الشعب الانجليزي عن اخلاق اليزابث « انها لم تكن تعرف شيئا من الاحتياط النسوي او ضبط النفس . وكان جمال الشخص يكفي لنيل حبها فقد كانت تداعب الشباب الجميل عندما يركعون لتقبيل يدها وكانت تغازل حبيبها لورد ليستر امام حاشيتها »

وقال سائح الماني في معرض الكلام عنها كان قد زار انجلترا عام ١٥٩٩ أي قبل وفاتها باربع سنوات : « انه عدّ عند كبري لندن مالا يقل عن ٣٠٠ رأس انسان ممن حوكموا بتهمة الخيانة العظمى » ومحقق ان هذه شهادة على قساوة اليزابث يؤسف لها جد الاسف

واخيرا دنت ساعة خصمها الاكبر الذي لاتنفع معه دموعها ولا تضرعاتها ولا تدبيراتها ، فألقي بتاج المملكة من على رأسها ورمى بصولجان الملك من يدها واطفأ سراج عينيها . ومثل هذا الخصم لايرشى فترشيه ولا يتحدى فتتحداه فصرخت وهي تتلوى تحت ثقله « ساعة واحدة بمملكتي » ثم ثقلت وطأته عليها فجالدته في ساعة يأس فجالدها ، واستدعى رجال الدين ليصلوا لها ودوى بعد ذلك في القصر « ليحي جيمس الاول ملك انجلترا وارلندا . واسكوتلاندة »

فكأن القضاء الساخر أبى الا ان يرقى العرش بعدها ابن الملكة الاسكتلندية التي تخافها اليزابث وتبغضها والتي قضت عليها اخيراً بالاعدام .

*

مارى تريزا

(١٧١٧ — ١٧٨٠)



ماري تريزا

ولدت ماري تريزا في ١٣ مايو عام ١٧١٧ في القصر الملكي بفينا ، وأبوها هو شارل السادس أمبراطور ألمانيا ، وأمها اليزابث كرستينا اف برنزوك التي قيل انها كانت على خلق عظيم

وقد فاقت ماري تريزا والديها في جمال الجسم وقوة الطبع والكفاية المدهشة التي وضعتها في مقدمة الملكات . وربما كان لا يساويها في اقتران الفضيلة بالقوة بين مشهورات الملكات غير ازابلا اف كاستل . وقد تساويها كترينا الروسية في كفايتها

إلا أن كترينا كانت امرأة ثائرة مجردة من الفضيلة حتى ان تلويث سمعتها غطى على عظمتها التي تستحق الذكر

فكانت ماري تريزا مثالا للملكة العاملة ، كانت ذات رأس مفكر ، وهمة عظيمة ، فلم يكن فيها موطن ضعف من الناحية الشهوانية فلم تخطيء ولم تتعثر كغيرها من الملكات اللائي اشتهرن بالفضيلة ، ولكن متانة خلقها صانتها عن الزلل فبقيت في حياتها الخاصة والعامة مثلا أعلى للفضيلة

وكانت ملكة محبة للعمل أوسلطة تنفيذية مجسمة ، وكان فيها من النشاط وبعد النظر والتيقظ الشيء الكثير . وأما الجلد وقوة الصبر على الشدائد وضبط النفس في عظائم الامور فحدث عن ذلك ولا حرج

وقد قال عنها فردريك الاكبر خصمها السياسي : «ولو اني أثرت حربا ضدها فاني لم أكن قط شخصياً عدوها بل كنت على الدوام أحترمها ، انها شرف لجنسها وفخر لعرشها »

ولم تكن تكتفي من الفضيلة بأن تتحلى بها وحدها بل فرضت الآداب على حاشيتها وفي ممتلكاتها فكانت خير قدوة في تقويم أخلاق الشعب

وفي عام ١٧٣٦ تزوجت من فرنسيس دوق اف لورين ، وكان هذا الزواج للمحبة أكثر منه للسياسة لذلك كان اتحاداً سعيداً . وكان فرنسيس دون زوجه في العقل بكثير ولكن حبها له جعلها مخلصة له طول عشرتها

وقد مات شارل السادس والد ماري وهي في الرابعة والعشرين وخلف لها ألقاباً كثيرة . فكانت بحكم الميراث ملكة المجر

وبوهيميا وارشيدوقة النمسا وسلطانة على الاراضي الواطئة ودوقة ميلان وبارما وبلاسنشيا كما كانت بالنسبة لزواجها من فرنسيس ارشيدوقة توسكاني . والحق أن مسألتها رغم هذه الالقاب المتعددة كانت مسألة ميئسة . فقد سعى والدها في حياته أن يضمن لها بعد وفاته عرشاً لا نزاع فيه فأعلن أن ماري ابنته هي وريثة بيت النمسا . وصدقت على هـذا عدة دول أوروبية . ولـكنه بعد ان توفي هب المطالبون بالعروش من كل ناحية

فانفصلت فرنسا من ذلك العهد الذي قطعته ثم لم تعترف بعـد ذلك لماري بألقابها . وأخذ ينازعها أمراء بافاريا ـ بمساعدة فرنسا ـ في النمسا والمجر وبوهيميا . وادعى كذلك ملك اسبانيا حقاً في النمسا وأخذ يستعد للاستيلاء على المقاطعات الايطالية . وادعى ملك سردينيا حقاً في ميلان.ولم يكتف ملك بروسيا بمثل هذه الادعاءات بل انقض بالفعل على فريسته واستولى على مقاطعة سيليزيا بعـد ان جعلها جنوده خراباً يباباً

فكانت الاخطار والصعاب التي أحاطت بماري عنـد ارتقائها العرش تكفي لأن تضعف أكبر عزيمة وترهب أقوى عقل . ولم يكن الأمر مقصوراً على ما ذكرنا بل كان فوق ذلك انها كانت مهددة كذلك في داخلية البلاد كما كانت بدون جيش ولا مالية . وان شئت فقل وبدون وزارة أيضاً

ولـكن لم يكن هناك أحد أكبر منها همة يوم ادلهمت الامور . وتعاظمت الخطوب . ولم يكن يصلح لهـذا الموقف العصيب . سواها ادارت عينيهـا حولها فعرفت ان المجر متعلقة بها فتحولت اليها طلباً

للمساعدة . وفي ١٣ يونيو عام ١٧٤١ توجت ملكة على المجر في بوسبورج

وكان لرجاحة عقلها وتأثير منطقها وحسن تصريفها للأمور شأن يذكر في موقفها فقد ناشدت رجال الدولة الوطنية والوطن . وقالت انها كملكة وامرأة ووالدة وبلا معين فانها تكل نفسها وأطفالها الى ثقتهم وأمانتهم ورفعت ابنها يوسف بين يديها وقدمته الى النبلاء المجتمعين فجرد ألف محارب سيوفهم من اغمادها وهتفوا في حماس « سنموت من أجل ملكتنا ماري تريزا »

ولم تشتهر بالشجاعة داخل حدودها فقط بل تعدتها الى انجلترا حتى إن موقفها بدون نصير أثار هناك حماساً شديداً فقرر البرلمان الانجليزي معاونتها . واكتتبت سيدات انجلترا ودوقات مارلبرا بمائة ألف جنيه لمساعدتها كذلك . فرفضت ماري هذه المساعدة الخاصة وقبلت فقط مساعدة الملك والبرلمان

واشتد الحماس من أجلها في النمسا وانتظمت الجماعات لمساعدتها في كل مكان وأحكم تحصين فينا . ونظرت الى ذلك ألمانيا وبروسيا بعين التعجب ، وأسقط في يد فردريك وطلب الصلح . واضطرت الى الصلح لانها بينا كانت في مركز المدافع ضد بروسيا كان الفرنساويون والبافاريون يغيرون على بوهيميا . وبذلك هزمت الفرنساويين في بضعة أشهر ودخلت براغ وتوجت ملكة على بوهيميا في مايو عام ١٧٤٣ . وكذلك انتصرت في ايطاليا . وفي عام ١٧٤٤ عادت ففقدت بافاريا ولكنها في العام التالي استردت بوهيميا وبافاريا وبموت شارل السابع أشبعت مطامعها باجلاس زوجها امبراطوراً على

عرش ألمانيا وكانت أول من هتف « ليحي الامبراطور فرنسيس الاول » وكانت تلقب منذ ذلك الحين « بالملكة الامبراطورة »

وقد استعادت في صلح اكس لاشابل عام ١٧٤٨ كل ممتلكاتها الموروثة ما عدا سيليسيا ، وبارما ، وبلاسنشيا ، وجوستالا

وكانت كاثوليكية حريصة. فلم تسمح للبابا أن يملي أوامره على مملكتها فحققت بذلك الفصل بين السلطة الدينية والروحية. وكانت على استعداد دائماً لان تضحي براحتها من أجل صالح رعيتها فقد كانت تقول : « إني لآخذ على نفسي الوقت الذي صرفته في نومي لانه اختلاس من رعيتي »

ولما هدأت الحال أخذت تقوم بالاصلاحات الداخلية . فأحيت الزراعة ، وشجعت التجارة والفنون ، وأنشأت الطرق وأصلحتها وأوجدت عدة صناعات كالملابس الصوفية والخزف والزجاج والحرير . وازدهرت العلوم بانشاء عدة كليات وجامعات . كما أقامت عدة مدارس للرسم والتصوير والعمارة ، هذا عدا المكتبات العامة المجانية التي فتحتها في براغ واسنبرك

ولم تكن لتكتفي بمعرفة القليل من شؤون الحكومة فانها كانت تخصص عشر ساعات او اثنتي عشرة ساعة لاعمال الدولة. ومع هذه العناية الفائقة بشؤون الحكومة فقد كان عندها وقت للقاء المقربين اليها وللرياضة وللعناية باطفالها الستة عشر

ومما يذكر لها بالثناء أن بابها كان مفتوحاً للامير والصغير كما كانت مشهورة بالاحسان حتى دعيت « بأم الشعب » . وكانت في غضون الاربعين عاما التي تولت فيها الحكم محبة للعدل كثيرة

العطف على الرعية .

وفي عام ١٧٦٥ مات فرنسيس الاول زوجها فكان وقع موته شديداً عليها وبقيت تلبس عليه الحداد باستمرار وتختلف الى قبره من وقت الى آخر . وخاطت كفنها بيديها مقدماً ودفنت عند موتها في كفنها الذي عملته لنفسها

وتوج بعد وفاة فرنسيس ابنه الاكبر يوسف الثاني ولكن نفوذ ماري في الحكومة بقي النفوذ الاول

ولم يشب اسمها شائبة طول مدة حكمها الا اشتراكها في تقسيم بولاندة الشائن ولكن الوثيقة السرية التي أمضيت في بطرسبورج عام ١٧٧٢ قد نزهت اسمها عن كل ما علق به فقد جاء فيها: « أنه اذا رفض البلاط النمساوي فكرة التجزئة فان بروسيا والروسيا تتحدان ضد النمسا » ولما ثارت ثائرة اوربا ضد هذا السلب العلني رد فردريك الاكبر بدهائه : « اما عني فاني أتوقع كل هذا الزئير ، ولكن ماذا عساهم يقولون عن قداسة ابنة عمي ؟ »

والحق ان ماري تريزا قد تركت وراءها صفحة نقية ناصعة في التاريخ

*

كاترينة الثانية

امبراطورة روسيا ١٧٢٩ — ١٧٩٦



كاترينة الثانية

في روسيا ، تلك البلاد التي تقسمتها الاجواء . وخالفت الطبيعة بين أراضيها فسحة الارجاء ، تلك البلاد التي لم تكن حظوظ الناس فيها أقل تبايناً : فمن ثروات طائلة يمرح أصحابها بين الاسراف واللهو والخلاعة الى فقر مدقع لا يجد معه المرزوءون ما يسد الرمق يستبد بها امبراطرة لا يعرفون لغير أهوائهم معنى ولا يقف سلطانهم عند حد . الاستبداد يدفع الملوك والحكام الى الظلم . والارهاق يدفع المظلومين الى الاغتيال تألفت له عصابات النهلستين (الفاتكين).

الملوك يملأون بالمتذمرين سيبيريا والسجون . والفاتكون يزهقون أرواح من تصل اليهم أيديهم

في هذه البلاد قام بطرس الكبير وأنشأ مدينته المشهورة بطرسبرج (بتروجراد كما تدعى اليوم) سنة ١٧٠٣ وجعلها عاصمة مملكته الضخمة . وأقام فيها تمثاله المعروف بجسامته يتطلع اليها وكأنه يكرر قول نبوخذ نصر البابلوني : « أليست هذه بطرسبرج التي أنشأتها بقوة سلطاني وشدتها لمجد جلالتي » تولى الحكم بعده خمس ملكات الاخيرة أعظمهن شأناً : تولت الحكم بعد بطرس الأول زوجته كاترينة الأولى سنتين ، ثم بطرس الثاني وكان صبياً في الرابعة عشرة لم يحكم سوى شهرين حكما اسمياً . ثم الامبراطورة آنة التي حكمت عشر سنوات كان الامر فيها لندمانها وانتهى سنة ١٧٤٠ بلا عمل يذكر . ثم جاء الطفل إيفان ودعي الامبراطور ايفان الثالث لم تمهله والدته التي بعثت بالوصي بيران الى سيبيريا وتولت هي الحكم سنة كاملة

وفي سنة ١٧٤١ قامت اليزابت ابنة عم « آنة » بثورة على رأس الحرس الامبراطوري وانتزعت منها الحكم ونادت بنفسها الامبراطورة اليزابث الاولى التي طال حكمها عشرين سنة أعلنت انها لن تقتل وطنياً ولكنها كانت تبعث الى سيبيريا بمن تشاء في غير حساب

وفي مدينة ستتين من أعمال بروسيا ولدت في يوم ٢ مايو سنة ١٧٢٩ أوجاستا فردريكا أميرة انهالت - زيربست برنبرج التي استعاضت سنة ١٧٦٢ عن هذه الالقاب بكلمتي كاترينة الثانية . تزوجت هذه الاميرة في الثامنة عشرة من عمرها بابن أخ الامبراطورة وهو

وان كان كبير الدوقات الا انه رجل لا خطر له . وإذ ماتت الامبراطورة أصبح هـذا الزوج الامبراطور بطرس الثالث . عاش الى جانب زوجته عيشة داموكلس الذي كان يأكل والسيف معلق فوق رأسه بخيط

نصبت لاغتيال حياة الامبراطور ثلاث مكائد لم تفلح ، وكاترينة تدعي أن لا علم لها بشيء منها وهي التي تحيك حبائلها

كان بطرس يقضي بضعة أيام في قصره الخلوي في « اورنيانبوم » ومنه ينتقل الى قصره في « بترهوف » وفي سبيله كمن له المتآمرون للقبض عليه ولكن جندياً سأل ضابطه متى نهاجم الامبراطور ، جزع الضابط إذ لم يكن له علم بالمؤامرة وأبلغ رؤساءه

أوقع اكتشاف المكيدة الرعب في نفوس المتآمرين . وكانت كاترينة نائمة في قصر بترهوف حيث تلاقي زوجها . دخل اليها جندي في الساعة الثانية صباحاً وأيقظها قائلا . ليس للامبراطور مهلة انهضي واتبعيني

أسرعت الامبراطورة وخادمها الى عربة كانت في انتظارها جرت بهما ركضا . انكسرت العربة في الطريق فاضطرت كاترينة ان تقطع مابقي من رحلتها ماشية وما سارت ميلاحتى لقيت فلاحاً يسوق عربة فأسرع اليه الجندي وأجلس الامبراطورة في العربة وجرى بها الى العاصمة

كان الامبراطور المسكين نائماً في قصره في « أورنيانبوم » بينما كانت امرأته كاترينة الثانية مسرعة الى بطرسبرج لتضع تاج الامبراطورية على رأسها . وصلت الى العاصمة الساعة السابعة صباحاً

وتقدمت الى الجنود مؤكدة لهم ان زوجها القيصر أراد اغتيال حياتها هذه الليلة وانهم حماتها وملاذها

أيقن الجميع صدق هذه الفرية وأقسموا أغلظ الايمان ان يقدموا حياتهم دفاعاً عنها . وهتف الاشراف بحياة الامبراطورة . وأجابهم الجند مؤمنين والضباط يشجعونهم

تقدم اليها فيلبوس قائد الفرسان يراجعها في الامر فلقيته كاترينة بصلابتها المعروفة قائلة : « لست في حاجة الى نصحك قل فقط ماذا تنوي ؟ » اختبل الرجل ولم يجب إلا بقوله : « الطاعة لجلالتك !. » وسلمها الترسانات ومخازن الذخائر فلم تمض ساعتان حتى كانت كاترينة على العرش والجيش تحت أمرها والعاصمة تحت قدميها

كان بطرس الثالث في غفلة عن اغتصاب زوجته ملكها فما علم حتى أسرع الى بترهوف وهناك أوقعت أنباء الثورة في نفسه خبالا أضاع صوابه . وانتهى به الامر ان كتب الى كاترينة خطاب تذلل يعترف فيه بخطئه ويطلب اليها مشاركتها في الحكم . فكان جواب كاترينة ان أرسلت اليه الكونت « بانين » يقنعه بأن يكتب إقراراً صريحاً بعدم صلاحيته للحكم ونزوله عن العرش مختاراً . ما حصل منه الكونت على هذا الاقرار حتى اعتقله في قصر روبسكا . وإذ لم يكن بد من اعلان أسباب هذه الحوادث الغريبة ، أصدرت الامبراطورة بلاغاً لم تذكر فيه شيئاً عن الامبراطور التعس . جاء فيه : « إن الاسباب التي حملتها على الاضطلاع بالحكم هي حبها الشديد لسعادة الشعب وحرصها على المذهب الارثوذكسي الذي صار عرضة للضياع – وختمته بقولها – ولهذه الاسباب اعتمدت على الله القدير

وعدله السماوي واعتليت عرش روسيا الامبراطوري وتقبلت إيمان شعبي الامين » ٢٨ يونيه سنة ١٧٦٢

بهذه الثورة التي لم ترق فيها قطرة من الدماء اعتلت عرش القياصرة امرأة غريبة ليس في عروقها نقطة من الدماء الروسية

ما استقر بها الحكم حتى تراءى لها شبح القيصر ، فلئن كان فيما يشبه السجن غير ان له أصحاباً ولا يزال له حرس هولستين وقد ساءهم ما أصاب أمبراطورهم فلا بد لها من التخلص منه . أرسلت اليه أورلوف وباراتنسكي للاجهازعليه وقد ظفرا بذلك إذ خنقاه في مسكنه بغوطة . فأراحا أنفسهما وأراحا الملكة ، وبلغت أنباء موته الامبراطورة وهي عاقدة جلسة مع رجال شوراها فلم ترغب في إذاعتها إذ لم تكن قد هيأت الاذهان لقبولها فاستمرت في جلستها تبدي الهشاشة والانشراح . واذ كانت في اليوم الثاني تتناول الطعام على مائدة عامة أعلن موت القيصر فقطبت جبينها وأرسلت الدموع غزيرة واحتجبت بضعة أيام مدعية الحزن الشديد . ثم أصدرت بلاغاً ان «شاءت إرادة الآله القدير ان يتوفى الامبراطور بطرس الثالث عن هذا العالم في نوبة مرض شديد كان يلزمه من زمن بعيد» وطلبت الى الشعب ان يرى فى ذلك عناية من الله خصها بها لم يكن في الشعب من بلغ به الغباء أن يصدق هذه الاكذوبة ولم يكن في الشعب من بلغت به الجرأة ان يكذبها . وكان فى هذا جواب كاف للامبراطورة

لقد دلت كاترينة على مهارة بما أحدثت من اصلاحات : سنت أنظمة هامة وشجعت التجارة وأنشأت المدارس والمستشفيات وكثيراً من الترسانات والمصانع

وادعت انها أسست مائتين وخمساً وأربعين مدينة وما هي في الحقيقة سوى قرى أطلقت عليها اسم مدينة أو مدائن بدلت من أسمائها أو خرائب بقيت كما هي سوى ان وضعت لها أسماء

قامت سنة ١٧٨٧ برحلة في نهر دنيبر وكان برفقتها جوزيف الثاني لوضع أساس مدينة يطلق عليها اسمها . « اكاترينسلوف » وضعت الامبراطورة الحجر الاول ، ووضع جوزيف الثاني الحجر الثاني . ولهذا كلمة مأثورة في هذا الظرف قالها تهكما وأيدتها الايام . « لقد قامت الامبراطورة وأنا اليوم بعمل جليل ، وضعت الحجر الاول لمدينة عظيمة ، ووضعت الحجر الاخير . » فقد وقف بناء المدينة عند هذا الحد ولم يعد أحد يفكر فيها

لم يكن لكاترينة سوى هوى شديد يتملك نفسها وهو الطمع : وإذ كان الاصل في خلقها الانانية ، كان من نفسها واليها يرجع كل مطمعها . وحشية الغريزة ، ماكرة . قاسية في غلظة في أسفل دركات الفساد . ولكنها كانت تعرف كيف تحيط نفسها بسياج من الهيبة ان لم يكن عن احترام وحب فعن رعاية ، بحيث كان فردريك الكبير ولويس الخامس عشر ، وماريا تريزه وجورج الثالث يعنون بأعمالها عناية خاصة

لم تشتهر كاترينة بشيء شهرتها بمجموعة قوانينها . التي قال عنها فردريك بروسيا : « اذا كان من الملكات من بلغن الشهرة بحق مثل سامیراميس بفتوحاتها والبزابث انجلترا بفطنتها السياسية وماريا تريزة بثباتها ومتانة خلقها . فلكاترينة وحدها يبقى لقب المرأة المشرعة » ومن يدري ما في هذا القول من زلف ومن صدق ؟ على

ان الفصل في ذلك ليس من الصعوبة في شيء متى علمنا مهانة أخلاق كاترينة ولؤم فردريك

لقد أكثرت كاترينة من موارد الامبراطورية وأفسحت مجال التجارة بما اكتسحت من المملكة التركية واطلاق حرية الاتجار في البحر المتوسط ومدت في سلطان روسيا الا انها كانت تسرف في الاموال بما يفوق ما تجمع وقد ضاعفت الضرائب على الرعايا وارهق الحكام الاهالي حتى أقفرت البلاد وجاع سكانها

وقد أرسلت مرة الى الملكة ماري انطوانت رسالة جاء فيها : «على الملوك والملكات أن يسيروا في أحكام لا يعبأون بصيحات الشعب كما أن القمر لا يعبأ بنباح الكلاب » هـذه سيرتها في جميع أدوار حياتها

لن نجد لكاترينة ضريباً الا في العصور الخوالي مثل كاليجولا وكليوبترا . ندمان لاعداد لهم ، يقدر ما أنفقت عليهم بمائة مليون دولار ووزعت عليهم من الممتلكات ما يبلغ في سعته الاقاليم . وبكلمة واحدة أو بجرة قلم قلبت رعاياها الذين كانت تدعوهم بابنائها الاعزاء الى ما دون الرقيق ينقلون كالماشية من قرية الى قرية . توزع الماس والذهب بلا حساب . وقد التف حولها من حثالة الناس أخبثهم وألأمهم طبعاً لا يدانيها في ذلك سوى لويس الخامس عشر وحاشيته . يعيشون من دماء الشعب المرهق المغلوب على أمره

وكان أهم أغراض كاترينة أمرين : بسط سلطانها غرباً بامتلاك بولاندا (بولونيا) وطرد الاتراك من الاستانة . ساقت الجيوش الى بولاندا فاكتسحتها وأقامت عليها ملكا من لدنها وسنت لها شرائع

بأسنة الرماح وذبحت ونفت كل من وقف في سبيلها

بقي البولانديون يقاتلون روسيا في سبيل الدفاع عن أنفسهم من سنة ١٧٦٥ الى سنة ١٧٩٥ حين تم للروسيين اخضاعهم

استعان البولانديون بالاتراك فوقعت الحرب بين الروسيين والاتراك سنة ١٧٦٨ وكانت شعواء جرت فيها الدماء مجرى المياه ولكنها انتهت بخنوع العثمانيين وقبولهم مطالب كاترينة سنة ١٧٧٤ واعتراف الباب العالي باستقلال القريم وان يبيح للروسيين الاتجار في البحر الاسود والارخبيل . وفي سنة ١٧٧٤ غضبت الامبراطورة على جورج أورلوف وجعلت بوتامكن نديمها ووزيرها . وهذا رجل وضيع المنبت سيء السمعة يجمع في نفسه كل الخلال المتناقضة لا يحجم عن أمر ولا يبلغ ظلمه غاية شديد الغواية عسوف ظلوم فاسق مبذر لم يفتح كتاباً ولكن يعرف كل شيء ولا ينسى شيئاً. اذا سخطت الامبراطورة على ندمانها يعرف هو كيف يبقي لها حاجة اليه . أفقر ظلمه البلاد وأرهق غشه العباد ولكن كان يعرف كيف يسير الاعمال

انتهت الحرب الثانية ضد الاتراك سنة ١٧٨٣ بضم القريم وكوبان الى روسيا وأطلق عليها اسما التوريد والقوقاز . فطلب بوتامكن الى الامبراطورة زيارة أملاكها الجديدة وكانت على استعداد لذلك

وفي يوم ١٨ يناير سنة ١٧٨٧ غادر موكب الملك سان بطرسبرج وهو مؤلف من أربع عشرة عربة للامبراطورة وحاشيتها ومائة وستين للاتباع والامتعة . وخمسمائة وستين جواداً تنتظرها في كل محلة .

تتدفق العربات في جلالها تسير باعتبار مائة ميل في اليوم . وكلما حلت في مكان أقيم لها قصر يشبه قصرها في العاصمة ولما بلغت « كيف » أبحرت في الدنيبر في خمسين سفينة حتى بلغت « تشرسون » ترد اليها الاموال من كل ناحية من الامبراطورية . وقد اعد جيش فيه مائة وخمسون الف جندي حديثاً لخدمتها . صارت بهم السهول مدناً عامرة .

اسرع أمير بولاندة للقائها وكان جوزيف الثاني يمتع نفسه بحضور حفلاتها ومشاهدة مواكبها والائتناس بسهراتها .

وكانت كاترينة نفسها توزع الالماس والذهب بيدها والأشراف يلقون به بين الاهالي يلتقطونه من الارض . وقضت في هذه الرحلة ستة شهور على هذا الاسراف والتبذير وهذه الاعياد المستمرة

مل لويس الرابع عشر متاعب الحكم فأوى الى قصره الذي ابتناه لراحته خاصة ودعاه تريانون . ابتنى فريدرك الكبير لنفسه مأوى مثله دعاه سان سوسى (بلاهم .) فاقتدت بهما كاترينة وابتنت لنفسها مأوى دعته « الهرمتياج » (المعتزل)

في ذلك المكان وضعت كاترينة عن رأسها تاج روسيا وتولت حماية الادب والفنون الجميلة . هناك يلجأ الندمان فاذا غضبت على أحدهم امرته بالسفر « انه لا يعرف سوى اللغة الروسية فليسافر الى فرنسا وانجلترا ويتعلم عنهم آدابهم ولغاتهم » اخذت كاترينة في ذلك المعتزل تحت حمايتها فناني روسيا مثل الشاعر لومونزوف ، والروائي ساموروكوف ، والكاتب خيرسكوف ، والمؤرخ شبريبتوف ، والعالم الطبيعي باللاس . وقد عنيت بكثير من كتاب وعلماء فرنسا مثل

ديدرو الذي اغدقت عليه احسانها وابتاعت مكتبته مع تركها بين يديه . ووكلت الى لاهارب الجمهوري تربية حفيديها اسكندر وقسطنطين واكثرت من مراسلة فولتير . لم تكن كاترينة على شيء من الميل للفنون ولا الآداب ولكنها ارادت من رعايتهم وحمايتهم خدمة مجدها وسلطانها .

يقوم على مدى خمسة عشر ميلا من عاصمة روسيا ذلك القصر البديع المعروف باسم « تسارسكو سيلو » وهو فرساي بطرسبرج وكانت كاترينة مغرمة بهذا القصر انفقت على تزيينه وتجميله بابدع التماثيل وابهج الزخارف اموالا طائلة ، وكفى أن واجهته تبلغ الفا ومائتين قدماً . . حدث بعد خمسة عشر سنة أن تساقطت منه قطع فدعت بالمقاولين يصلحون من شأنه .قدم لها المقاولون نصف مليون دولاراً ثمناً لما تبقى فقالت كاترينة ساخرة « أيها السادة اني لم أعتد بيع ثيابي القديمة . »

وبينما كان بسمارك في زيارة القيصر اسكندر الثاني أبصر من نافذة قصر بترهوف ديدباناً في وسط الحيل لم ير ما يحرسه . سأل بسمارك القيصر مستطلعاً ما الذي يحرسه هذا الديدبان ؟ سأل القيصر اركان حربه فقال لا أدري . سأل الضابط . فاجاب لا أدري . أحضر قائد فرقة بترهوف وسأله فلم يزد على قوله « انها عادة قديمة سأل وما هي تلك العادة ـ لا اتذكر .

قال القيصر ابحث وقدم اليّ تقريراً بذلك ، وبعد ثلاثة أيام بلياليها جاءه التقرير واذا به: « انه منذ ثمانين سنة ابصرت الامبراطورة كاترينة وردة زاهرة في تلك الناحية فامرت باقامة جندي لحراستها خشية

أن يقتطفها احد . ومنذ صدر امرها هذا لم تنقطع الحراس ان تتولى حراسة هذا المكان . وهذه سيطرة القياصرة »

اعتزمت كاترينة ان تزوج احدى حفيداتها من جوستاف ادولفوس ملك السويد . ولكن هذا الامير كان قد خطب اميرة من آل ماكلنبورج . عطلت كاترينه هذا الزواج ودعت الامير الى قصرها معتمدة على سلطانها وجمال حفيدتها الاميرة اسكندرينة في تحويل عزمه الاول وارغامه على قبول هذه

وقد خيل لها الوهم ان قضي الامر فاسرعت باعداد معدات الزواج وهيأت حفلة العرس في القصر الشتوي . ازينت اسكندرينة زينة العروس ووقفت الى جانب جدتها الامبراطورة . تم كل شيء ولم يأت العروس . طال الانتظار وخيم سكون قابض . اصفرت العروس واحمرت الامبراطورة ونظر المحتفلون كل الى الآخر نظرة استنكار .

جرى في هذه الاثناء مشهد آخر في مسكن ملك السويد ذلك أن المستشار ماركوف حمل الى الملك عقد الزواج لامضائه . قرأه عليه مسرعاً والملك مصغ اليه فلحظ أن هناك شرطا لم يتفق عليه : وهو ان من العادة في السويد أن تنكر الملكة مذهبها وتتخذ دين الدولة دينا لها . غير أن الامبراطورة ابت لحفيدتها قبول هذا الشرط وجعلت ذلك استثناء .

ابى الملك التوقيع على العقد . صعق المستشار لهذا الرفض . صبي يقاوم الامبراطورة . امر مدهش . ألح وتضرع وانذر . ولكن جوستاف لم يغير من عزمه . وأخيراً كبر عليه أن يخدع فأخذ العقد

ورمى به. ثم اغلق على نفسه مسكنه وهو يقول: «لا اقبله ولا امضيه»

من يجسر ان يبلغ الامبراطورة هذا النبأ وهي في وسط الحاشية والمحتفلين؟ بعد تردد أقدم النديم زوبوف واسر الامر الى الامبراطورة. فتدفق الدم الى وجهها وحاولت النهوض فلم تستطع. ولكنها عادت فاستجمعت قواها وصرفت المحتفلين بدعوى أن ملك السويد اصيب بانحراف مفاجيء . ثم انسلت الى مخدعها

واخذت العروس الى غرفتها خائرة القوى مضعضعة النفس مبتئسة حزينة اذ جرحت في كبريائها ونفسها . ولكن كاترينة . الامبراطورة كاترينة القاهرة ماذا شأنها ؟ .

اهينت وهي فوق عرشها . احتقرت امام حاشيتها . مكربها لا تجد في الانتقام شفاء لغليلها . سافر ملك السويد بعد ايام الى وطنه . وأخذت كاترينة تفكر في الثأر بحرب طاحنة تسحق بها ذلك الفتى فاذا بها تسقط تحت ضربة الموت . سقطت وكانها ساحرة خنقتها سمومها .

وجدت كاترينة يوم ٩ نوفمبر سنة ١٧٩٦ ملقاة على أرض مسكنها مفلوجة . ذهب كل علاج سدى وفي اليوم التالي رحلت هذه المرأة بآثامها وجرائمها ودناياها عن هذا العالم

لئن كانت بجرائمها السياسية والخصوصية حقيقة باللعنة الا أنها كانت على أجل ما توصف به الفرنسية المهذبة من اللطف والرقة واللباقة . لطيفة بين حاشيتها رقيقة سهلة المراس وديعة الخلق . على أن لها من الحزم والبأس ما لا يكاد يخفى على الناظر اليها . وكأن الجمع بين لينها وشدتها جعل لها ذلك المقام المهيب وكان من حسن

لقائها وجلال هيئتها وعنايتها بكل مظاهر الملك وحرصها على رعاية قدر نفسها ما كان يضطر الجميع لاحترامها غير أن أنانيتها وانحطاطها وتهتكها ذهبت بكل شيء وجعلت منها تلك المرأة التي استعرضنا حياتها

لا نعرف بين الشهيرات من ملكات التاريخ ، ملكة خلت حياتها من الاعمال الشريفة . لم تجر في أمر إلا عن حب لذاتها ودعارة في جسمها وخساسة في نفسها سوى كاترينة دي مدسيس أمبراطورة روسيا التي أطلق عليها التاريخ « لقب كاترينة العظيمة »

ديدة تطحن الشعب وتدفعه الى الثورة سيأتي وقت يا مولاي
متذمر فيه الشعب ولعل هذا الوقت قريب منا »

لم يعلق الملك على هذا بأكثر من قوله « لا أريد ان أسمع
يئاً عن هذا يجب أن تبقى الحال على ما هي عليه ما بقيت » .
ضافت إليه مدام دي بومبادور قولها « أصبت يا مايكي ، يجب
ن تبقى الحال ما بقينا وبعدنا الطوفان » . وهكذا عند ما هبت
لعاصفة واشتد خطرها وذهب الدوق دي ليانكور يبلغ لويس
السادس عشر انه قد سقط « الباستيل » ووقف على أنقاضه شعب
يتحدى ملكه . قال الملك في دهشة وفزع « ثورة ، اذاً ! » ثورة
ولا شك ، ثورة أخرجت الملك من فرساي وماري انطوانت من
تريانون ونزل تاج فرنسا الى التراب وظهرت قبعات اليعقوبيين الحمراء
عند أبواب القصر . واجتمعت الفوضى ! الاضطراب ! الخلل !
الحكومة ! الفلسفة ! الدين ! كلها في صعيد واحد تحت راية ذلك
الحكم الرهيب

غادرت ماري انطوانت قصر والدتها الامبراطورة ماريا تريزة
في فينا يوم ٢١ ابريل سنة ١٧٧٠ وكأن ما أريق من الدموع يوم
رحيلها كان نذير تلك الحياة التعسة التي ستقضيها في فرنسا مع زوجها
لويس السادس عشر حيث صارت رهينة القدر

كان لويس السادس عشر ضخم الجثمان خجول الطبع على شيء
غير قليل من الفتور في العزيمة بحيث ان والده الملك كان أكثر
نشاطاً وحركة في حفلة العرس من العريس ذاته . وكانت ماري
انطوانت حين ذلك في السادسة عشرة من عمرها وقام بعقد الزواج

*

مارى انطوانت

١٧٥٥ — ١٧٩٣



ماري انطوانت

لا بد لمعرفة أو فهم هذه العاصفة العنيفة التي مرت بفرنسا في هذا الزمن من نظرة تجمع بين طرفيها . هذا لويس الخامس عشر في قصر التريانون وقد جلست اليه مدام بومبادور يسمعها مكتوباً يصف ما انتهت اليه مالية البلاد « مولاي ، إن ماليتكم في أسوأ حال وان الامور لسائرة الى الخراب . وزراؤكم في عجز ، الحرب تهدد الدين . عجل باصلاح المالية . ان الحال تدعو لفرض ضرائب

رئيس أساقفة باريس في كنيسة القصر يوم ١٦ مايو سنة ١٧٧٠

جرت الحفلات في أبهة لم يذكر الفرنسيون لها مثيلا الا أيام لويس الكبير والخزانة تنفق بالرغم من عسرها وبلغ مقدارما أنفقته عشرين مليوناً فرنكا . وهو مبلغ له قدره في ذلك الزمان

كان يوم ٣٠ مايو آخر أيام حفلات باريس وأطلقت في تلك الليلة الالعاب النارية على أبهى وأجمل ما يكون فتسابق النـاس يشهدونها في ميدان لويس الخامس عشر « الآن بميدان الكونكورد » . واكتظت الشوارع بالناس ألوفاً ألوفاً . ولسوء الحظ اشتعلت النصب المعلقة عليها الحرائق ولم يكن من سبيل لاطفائها. علا الصياح من كل جانب وتصاعدت زفرات المنكوبين وذهبت مئات النفوس اختناقاً . حتى أكلت النـار بعضها فانطفأت . خصص العروسان نفقاتهما لتخفيف ويلات المنكوبين . وهكذا انتهت تلك الحفلات الفخمة « بين النواح والعويل » كأنها نذير سوء للمحتفل بها ماري انطوانت وما ينتظرها في حياتها الزوجية

بعد ذلك بأربع سنوات وفي منتصف الليل فاضت روح لويس الخامس عشر وتجاوبت الاصداء بذلك النداء « مات الملك . ليحيي الملك . وأسرع الرسل الى مسكن لويس السادس عشر ينادون به ملكا على فرنسا . سجد الملك الجديد وزوجته لله متوسلين « اللهم ارشدنا وخذ بيدنا إنا أصغر سناً من أن نحكم »

لم يمض على موت الملك ثلاث ساعات حتى أقفر قصر فرساي فراراً من الطاعون الذي فشا في أنحائه انتقل لويس السادس عشر وزوجته الى شوازي ولم يبق في القصر بجانب جثة الملك سوى نفر

من أحط الـكهنة قدراً وطائفة من الخدم ومن هنا ساروا في غير حفاوة بالجثة الى سان دنيس

ذهب الملك المحبوب لويس الخامس عشر وسرعان ما نسي . تحولت أنظار الامة الى لويس السادس عشر وزوجته ماري انطوانت ولـكن الامة في عهدها كانت قد تغير شأنها فلم تعد تحتمل سيئات الحـكم المطلق ونهضت تطالب بحقوقها ولم يعـد في الامكان الاستمرار على ذلك المبدأ القديم « الدولة أنا » . ولا ذلك الحق السماوي الذي يحكم به الملك على ما يشاء

تحولت الانظار الى الملك الشاب والتف الشعب حوله وهو يأمل فيه آمالا كبيرة ودعاه لويس المشتهى . على رجاء انه يدير سفينة الدولة وينقذها من ورطتها ويسير بها بين العواصف التي تتجاذبها وينجو بها سالمة الى بر السـلامة . فلو أخلص لويس السادس عشر النية والعزيمة لـكان عند ظن الشعب به ولم يكن في ملوك فرنسا من يدانيه عظمة الا انه رغم طيبة قلبه وسلامة نيته ضعيف العزيمة فاتر الهمة بدأ ضعيفاً وانتهى ضعيفاً . ولو ان الامر كان بيد الملـكة ماري انطوانت ابنة الامبراطورة ماريا تريزة لقضت على الثورة في مهدها بيد من حديد . ولو ان الملك كان من الحزم بحيث ينفذ اليوم ما أبرمه أمس لانتقلت فرنسا في هوادة من الحـكم المطلق الى الحـكم الدستوري . ولـكن حسن ارادته وفضل اعتزامه يتلوهما الضعف والتردد جعل وحدة الرأي محالا وجعل الثورة أمراً محتوماً

عاد الملك في حفلة رسمية الى العاصمة فقابله الباريسيون فرحين

مهللين أطربه هتافهم فقال: «ماذا فعلت حتى يحبوني هذا الحب؟» .
لم تفعل شيئاً ولكن المنتظر منك كثير. ولكن لويس السادس عشر لا نخوة له وكأن ضخامة جسمه كانت تحول بينه وبين تنفيذ ما يشرع فيه

وفي يوم ١٠ يونيه سنة ١٧٧٥ توج لويس الصالح كما كان يدعوه الشعب في حفلة لا يعرف ان يأتي بمثلها سوى الفرنسيين . وأرادت امبراطورة النمسا ماريا تريزة ان تتوج ابنتها مع الملك على انه لم يبد من ماري انطوانت ميل الى ذلك

نشأت ماري انطوانت على ما ألفته من الحرية في قصر النمسا فكان لا بد لها من زمن طويل تأخذ فيه نفسها بالتقاليد الفرنسية حيث كان لكل حركة ولكل خطوة ولكل حديث شرائط معينة ورسوم محدودة لا يجوز الاخلال بشيء منها

نذكر مما كتبته مدام كامبان عن تلك التقاليد بعد ان وصفت ما كان يحيط بالملك والملكة من الابهة والنظام والرياش : « إن ماري انطوانت كانت تلبس ثوباً أبيض بسيطاً وعلى رأسها قبعة من القش وبيدها سوط صغير ، تسير على قدميها لا يتبعها سوى خادم واحد حتى تبلغ لبتي تريانون ولم يكن في منظرها ما يأخذني . وظني ان هذه السذاجة هي أول اخطائها وأحقها في نظر كل من دنا منها »

في حين ان خدمة الملك والملكة وولي العهد كانت شرفاً يتسابق اليه كبار القوم وكبيراته . ولم يكن للملكة ان تبارح

مكانها دون ان يسير خلفها الاشراف والشريفات ، ولم يكن لها ان تخلع ثياباً أو تلبس غيرها الا في نظام تقاليد لا بد منها كما يحدث في بلاد مادي وفارس

حدث في صباح يوم من أيام الشتاء القارس ان الملكة ماري انطوانت كانت نصف عارية تقريباً وأرادت ان ترتدي ثوباً فأخذته السيدة الوصيفة اليها ، دخلت الوصيفة الاولى ،وتقضي اللياقةالرسمية ان تقدمه هي فنزعت قفازها بسرعة وتناولت الثوب وفي هذه اللحظة قرع الباب وكانت القادمة هي دوقة أورليان ، والرسميات تقضي ان تكون هي حاملة الثوب ولكن القوانين المتبعة تقضي ان يعاد الثوب الى الوصيفة ومنها الى الوصيفة الاولى ومن هذه الى الدوقة فدار الثوب دورته واذا بالكونتس دي بروفنس داخلة فأعيد الثوب الى دور ثاني تتبادله الايدي تدريجياً حتى يصل الى الكونتس وهي تقدمه الى الملكة . واذ رأت الملكة تنتفض برداً لم تنتظر حتى تخلع قفازها بل أسرعت بالقاء الثوب على كتفي الملكة فلم تطق الملكة صبراً وصاحت :« ما أبعد هذه اللياقة وما أكثرها عناء » . هذا شيء من تقاليدفرساي حينذاك

أهدى لويس السادس عشر الى ماري انطوانت قصر البتي تريانون لتكون فيه على ما تشاء من الحرية ولم يكن شيء أحب اليها من ذلك ، أقامت طليقة من قيود التقاليد تمرح في ثوبها الابيض وقبعتها القش تقطف الزهور وتطارد الفراش وتحادث الفلاحات وهن يحلبن على أبسط ما يكون

اجتلبت هذه السذاجة على ماري انطوانت شهرة ساخرة

وجعلتها مضغة في أفواه الكثيرين في فرنسا وأوربا ولم تدخر عمات الملك وسعاً لجمع الاحاديث يتحدثن بها في تهكم على الملكة

ومن أخطائها التي لا يغتفرونها لها انها أمرت يوماً السيدات اللواتي كن في حاشيتها بالجلوس . ساء هذا الامر صاحبات المقام الاول وعددنه سماجة وغلظة وتشدقت به الشريفات في بلفي ولوفيسين . الويل لماري انطوانت التي لم تكن تفكر في شيء من هذا

كان من شأن سذاجة الملكة وضعف الملك ان ذهبا بالاكثر من هيبتهما

وضعت الملكة يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٧٨١ صبياً فهنأها الملك بقوله : « لقد أتيت يا سيدتي اليوم بأعز ماتتمني الامة . جئتلها بولي عهد » وقد بلغ السرور من الشعب مبلغ الجنون اذ كان يجتمع الناس من كل الطبقات يقبلون بعضهم البعض على غير معرفة . وكان سرور الملك أبلغ

كانت الملكة حينذاك في ريعان الشباب وعلى أجمل ما يكون بحيث كانت موضع اطراء الكتاب من الفرنسيين . غير ان احترام الملك والملكة أخذ يتضاءل حتى اجترأ عليه آله بحيث انك لو دخلت عليه في مجلس لما عرفت أيهم الملك

كان يوم ٥ مايو سنة ١٧٨٩ يوماً عظيما ازدانت فيه فرساي بأبهى رياشها وطنافسها . ذلك يوم منح الملك الشعب برلماناً حرم منه مائة وخمسين سنة . وكان ذلك في نظر الجميع مطلع عصر الحرية القومية . على ان الشعب عند ما رأى موكب السائرين الى

محلة البرلمان في صفوف متباينة تفرق بين طبقات الامة . خامره الاستياء . اذ الشعب نفسه في آخر الصفوف ليس بينه من الاشراف سوى الكونت الشعبي ميرابو . مرّ الامراء ثم الملك في غير أبهة والملكة في جلالها الطبيعي تدل هيئتها على انقباض في النفس تحاول عبثاً اخفاءه . لم يحيها الشعب كعادته لتحي الملكة بل كانت صيحاته لتحي أسرة أورليان

غيظ الاشراف من سلطة الشعب النامية وتحالفوا على أن يطفئوا شرارة الحرية . عقد الملك يوم ٢٣ يونيه جلسة في فرساي وأضمر الاشراف القضاء على جماعة الشعب واذ كانت الحفلة في نظامها وتقاليدها على ما كانت الحفلات في العهد القديم جعل الملك همه في كل خطابه تكرار العبارات الآتية « أريد ـ آمر ـ أنهى » وختم خطابه بقوله: « آمركم أيها الاشراف بالانصراف وان نعود غداً صباحاً الى المجلس حسب نظامكم »

انصرف الملك وحاشيته وتلاهم الاشراف والكهنة . انطلق هؤلاء واثقين انه قد قضي على جمهور الشعب . ولكن نوابه بقوا في مقاعدهم وجاءت الازمة . لا مفر من واحدة من اثنتين : المقاومة أو الخنوع . الثورة أو الاستعباد . لحظ الماركيز بريزة ان الجلسة لم تفض فتوسط الساحة وصاح بصوت جهوري . لصوت يخضع له خمسون ألفاً من الجنود على استعداد تام للعمل . وسأل قائلا: « هل سمعتم أمر الملك ؟ »

أجابه ميرابو بعين يتطاير منها الشرر وصوت كصوت الرعد : « نعم سمعنا أمر الملك. ولست ـ أنت الذي لا محل لك هنا ولا صوت ـ

بالذي تذكرنا كلماته . اذهب وقل لمن أرسلوك إنا هنا بقوة الشعب ولا شيء يخرجنا من هنا سوى قوة الرماح »

كان الاشراف يتهادون التهاني فرحين مسرورين لاعتقادهم القضاء التام على جماعة الشعب يتسابقون الى تقديم تهانئهم الى الملك وبلغ من سرور ماري انطوانت ان قدمت اليهم ابنها قائلة : اني أعهد به الى الاشراف .

دخل المركيز دي برزه وأبلغ الملك ان النواب مستمرون في جلستهم وانه ينتظر أمره . خطا الملك خطوات ثم قال « حسنا دعهم وشأنهم ؟ »

لو ان هذا وقع في عهد لويس الرابع عشر لبعث بهم الى الباستيل أو المشنقة ولكن عصر لويس الرابع عشر انقضى

جاء يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ واذا باريس كلها في هرج . الغوغاء يعبثون في المدينة طلباً للسلاح ، قدم كل ما لديه من سيوف وغدارات وبندقيات . ثم أغاروا على الترسانة الملوكية تركوا ما بها من أسلحة أثرية . ولم يبقوا على شيء من السلاح . ولكن ماذا يغني الشعب هذا السلاح وقد وقف المرشال بروجلي بخمسين الف جندي وافرة السلاح على مقربة من فرساي . ووقف لهم بنسفال بضعة آلاف من الجنود السويسرية والجرمانية في شان دي مارس متأهبة للانقضاض على هؤلاء الباريسيين ، وتلك القلعة الهائلة المخيفة قلعة الباستيل التي يبلغ سمك جدرانها أربعين قدماً من أدنى وخمسة عشر قدماً من أعلى ، وقلاعها التي تعلو الى ارتفاع مائة وعشرين قدماً بمدافعها . فهل يمكن الاستيلاء على الباستيل؟ السلاح .

السلاح . اشتد طلب الشعب للسلاح ثم اتجهت الانظار الى الانفاليد . لم يلق الشعب من الحرس مقاومة فاندفع الى المخازن واستولى على ثلاثين الف بندقية وستة مدافع ومن ثم تصايحت هذه الجماهير بكلمة واحدة الى الباستيل . الى الباستيل . وكانت الاصداء تتجاوب من جميع الجهات . انقض من عامة الشعب مائة الف أو يزيدون على ذلك الحصن الحصين حصن فرنسا الذي حاصره البرنس دي كونده ثلاثة وعشرين يوماً وارتد عنه حاسر الطرف

وقف دي لوني حاكم الحصن على قمة القلعة ساعات طويلة يسمع زئير الشعب وزمجرة ذلك السيل الجارف . أوفد الناخبون من « أوتل دي فيل » المسيو توريو يدعو الحاكم الى التسليم . استقبله بين رجاله فقال توريو أدعوك باسم الشعب الى تسليم الحصن . وكان دي لوني ينتظر مجيء الجنود من فرساي ، أبى التسليم قائلا لا أطلق النار على الشعب اذا لم يطلق الشعب النار عليه . أبصر توريو بالمدافع وكان يعلم ان قد صدرت اليه الاوامر من أوتل دي فيل بحلها فقال : « انك لم تحل المدفعية »

— لقد سحبتها فقط

— أوَلا تنوي حلها اذاً ؟

— ان المدافع هنا بأمر الملك ولا تحل الا بأمر من الملك

فقال توريو : « يا سيد دي لوني ان الملك الحقيقي الذي أنصح لك بطاعته هو هذا » مشيراً الى الجماهير التي تملأ الميدان مشهرة سيوفها

— قد تعرف أنت ملكين أما أنا الحاكم فلا أعرف الا ملكا

واحداً هو لويس السادس عشر الذي بأمره أسيطر هنا على كل شيء . ثم احتدم فقال باسم الملك آمرك ان تترك هذا المكان حالا

انسحب توريو وبدأ الهجوم هجوم الباريسيين كلهم شعب وكهنة ونساء وأطفال دام الهجوم خمس ساعات تباعاً وبعدها رفعت القلعة علم السلام . ذلك ان دي لوني رأى نفسه وحيداً لم تأته الجنود من فرساي وانصرف عنه رجاله الى الثائرين. أراد ان ينسف القلعة باضرام النار في مخازن البارود وكان بها مائة وثلاثون برميلا (زيتلا) وقف له جنديان وحالا بينه وبين ما أراد فحميا مئات الالوف من الموت . رأى الناس علم السلام فأوقفوا اطلاق النار وهتف الجميع « سلم الباستيل » . سلم الباستيل

ذهب النوم عن عيون جميع سكان فرساي الا الملك . بقي له الحرس الفرنسي والحرس السويسري وجميع الاشراف وما بقي وفياً له من الاهالي غير ان الشعب باستيلائه على الباستيل قد أصاب منه مقتلا

يقولون من أراد الله به شراً ذهب بصوابه . وكان هذا شأن الحاشية الفرنسية اذ أمعن الاشراف في الكبرياء العالي واحتقار الشعب . حتى قالت ماري انطوانت جازعة « ان هؤلاء الاشراف يدفعون بنا الى الخراب »

كان جيش فلاندر معسكراً في فرساي وفي أول اكتوبر أقيمت في القصر مأدبة للضباط جرى فيها الشراب مجرى المياه وكان الاسراف والبذخ على أقصاها . واذ كانوا يسخرون من الشعب وثورته كان هؤلاء قد رفعوا رايتهم واشتد حنقهم . القصر يقيم

الولائم والشعب يتضور جوعاً ، فرساي تتهلل فرحاً وباريس تذرف دموع الحزن

جاء يوم ٥ أكتوبر وكان حالك الظلام قارس البرد وأهل باريس لا يجدون ما يسدون به الرمق . ازدحم الناس حول المخابز ولم يجدوا كسرة . صاح بهم صائح : « الى فرساي أيتها النساء » انطلقن الى فرساي تتقدمهن فتاة تحمل الطنبور وهن وراءها يصحن : « خبز ! خبز ! ، لنعلم الرجال الشجاعة ، واذا لم يكن في وسعهم حمايتنا فلنحم أنفسنا ، الى فرساي »

وقف الجمع بباب التويلري فأسرع السعاة لابلاغ الملك والملكة بالخطر الداهم فلم يكن من جلالته سوى الذهاب والتلهي بالصيد والقنص في ميدون ثم عاد فرأى في قصره سبعمائة رجل قد جردوا السيوف وتأهبوا للدفاع عن القصر

لم تمض خمس دقائق حتى وصلت النساء ودخل الى الملك خمسة عشر منهن فأحسن الملك لقاءهن ووعدهن خيراً فانطلقن ينشدن : « فليحيا الملك »

وفي الساعة التاسعة أشيع ان الجنرال لافايت على رأس الحرس الوطني والحرس الفرنسي وجماعات من الباريسيين في سبيلهم الى فرساي . أسرع المسيو سان بريست فأبلغ الملك ناصحاً له بمغادرة القصر وان الركائب معدة لسفره حيث يشاء آمناً

أبى لويس الا المقام حيث هو لا عن شجاعة لمواجهة الحوادث بل عن عجز عن اعتزام أمر فحقت عليه كلمة الملكة : « الرجل المسكين »

لم تجد الملكة في زوجها عوناً ولم تكن في حاجة الى أحد .
فبقيت وحدها محتفظة بشجاعتها لان ابنة ماريا تريزة تعرف ما تقصد
اليه ولا ترهب فرنسا كلها فأقامت حيث أولادها وزوجها

وصل لافايت عند منتصف الليل وكان قد أنهكه التعب وعزم
على حماية القصر ، وطلب من الملكة والسيدات الانصراف الى
مخادعهن وان ينمن ملء جفونهن

اهتدت جماعات الشعب بالرغم من الحرس الى باب غير حصين
ولجوه متدفعين حتى بلغوا مكان الملكة . ووقف الحرس للهاجمين
يدافعونهم حتى تساقط رجاله الواحد بعد الآخر وكانت الملكة قد
تمكنت من النجاة بنفسها ، اغتصب الجمهور غرفتها وأخذوا يطعنون
فراشها بالرماح حنقاً ، حتى جاء لافايت فأخرجهم

كان ذلك يوم ٥ اكتوبر وما طلع صباح يوم ٦ حتى ازدحم
الناس حول القصر يطلبون الى الملك الذهاب الى باريس ولم يكن
في وسعه سوى اجابتهم الى طلبهم فهتفوا جميعاً ليحي الملك .
ولكنهم أعلنوا سخطهم على الملكة فكان صياحهم : « لتسقط
النمسوية »

قال لافايت للملكة :«ان الملك سيسير الى باريس فما تقصدين؟»

فكان جوابها : « أصحب الملك » . وفي المساء سار الملك
والملكة الى باريس

وتتابعت الشهور حتى مل الملك المقام وأخذ يفكر في الهرب
والوصول الى الحدود وهناك يجمع رجاله وينظر في تسوية الخلاف
الذي أودى بالمملكة

وكان جبريل أونوره دي ميرابو « ابن الصاعقة » وأفظع من تكشفت عنه الثورة وأروع الرجال خلقاً وأعظم خطباء فرنسا يملك زمام الجمهور وهو كما كان يعتقد في نفسه انه وحده فقط يستطيع انقاذ الملكية

وفي سانت كلود جرت المقابلة المشهورة بينه وبين ماري انطوانت فعرفت له قدره وأثنى على جلالتها ودامت المحادثة ساعة ختمها ميرابو بقوله: «ان سيدتي الامبراطورة والدتك كانت اذا أذنت لاحد في محادثتها لا تصرفه حتى تسمح له بقبلة يدها » مدت اليه ماري انطوانت يدها فقال ميرابو :« مولاتي لقد نجت الملكية »

ولسوء الحظ لم يمهل القدر ميرابو حتى يبدو منه ما يدل على حرصه على وعده أو نقضه فقد لفظ النفس الاخير في أبريل سنة ١٧٩١ وبموته ماتت آمال الملك والملكة . فاعتزما الهرب وأعدا كل شيء وخرجا تصحبهما اليزابث والطفلان ومدام تورزيل . ركبوا العربات وجرت بهم مسرعة الا أنهم لسوء حظهم عرفوا في فارين فردهم الشعب الى التويلري أسوأ رد وكان ذلك يوم ٢٠ يونيه سنة ١٧٩١

مضت سنة كاملة وفي يوم ٢٠ يونيه سنة ١٧٩٢ أحاط الشعب بالقصر هاتفاً لتحيا الامة . ثم اندفع الرعاع الى القصر وأكرهوا الملك على لبس القبعة الحمراء قبعة اليعقوبيين ، فلبسها صاغراً والشعب يهتف فليحي الملك . عاد لويس وذهب الى المرآة فأبصر هذه القبعة على رأسه ، فجزع وبكى وقال لزوجته : « سيدتي لم آتِ بك من فينا لتشهدي هواني على هذا الشكل »

ازداد موقف الملك والملكة مع الايام خطراً فرأى الملك عملا بمشورة أصحابه ان يحضر الجلسات العمومية بنفسه

ذهب الى المجلس فأبوا عليه الدخول قائلين: « لا يدخل. لا تخدع الامة. النزول عن العرش أو الموت ». ولكن الجنود أفسحوا الطريق ودخلت العائلة المالكة المجلس. دنا الملك من الرئيس وقال: « جئت الى هنا منعاً لوقوع جريمة كبرى ولاني لا أعرف مأمناً خيراً من المقام معك »

فأجاب الرئيس: « لتثق جلالتك بنيات المجلس »

كان المجلس شديد الزحام والكل في ريب من الموقف يشعر الجميع ان العاصفة تتجمع على رأس العرش ولا يمنع انقضاضها مانع. أشار الملك الى أحد أتباعه وحادثه همساً فانطلق التابع. فزع النواب وأحاطوا بالرسول يسألونه في حمية ولجاج: «بماذا أمرك، أي أمر صدر؟ تكلم. تكلم» ضحك الرسول فقال: «ألا تذكرون انكم أمام « بوربوني » لقد أمر الملك ان أعد له الغداء »

هذا حال الملك بينما كان الغوغاء يهاجمون قصره والحرس السويسري يسفك دمه دفاعاً عنه كان يمتع نفسه بالطعام والشراب في غير مبالاة. جاء صباح يوم ٢١ يناير حيث حوكم الملك وصدر حكم القضاء بموته وسقطت رأسه الملكية تحت سكين المقصلة. وبقيت الملكة وأولادها أسرى السجن

اخذت ماري انطوانت من سجن « التامبل » الى سجن الكونسيرجري حيث تنتظر يومها المشؤم واذ كانت داخلة

اصطدم رأسها بحدائد الباب فسال دمها. سألها الحارس: «هل اصابك سوء يا سيدتي ؟»

فقالت: «كلا لم آلم له» ولم يكن أحد يواسيها في سجنها سوى امرأة السجان وروز إلي لامورلير . بقيت عشرة ايام دون أن تبدل ثيابها رغم رجائها ، غير أن ميشوني احضر لها من سجن التامبل بعض قمصان وثياب داخلية وذلك الثوب الابيض الذي ارتدته يوم نفذ فيها الحكم . وما كان اصعب عليها من ان ينتزع كل يوم من حلاها وتذكاراتها المحبوبة ما تمنحه للسجان ولرفيقتها. شتان بين ما كانت تمرح فيه ايام عزها من نعيم وبين ما تلقاه في سجنها من ضنك وما يصدع آذانها من تهم كزوجة ووالدة تحتملها في غير تذمر ، أو شكوى

وكان اخر ما أصابها في عزة نفسها أن انتزعت هدية والدتها وهي قفاز وخصلة شعر اوصلته مع احد الاوفياء للويس السادس عشر وهو المسيو هيو ليوصلها الى ابنها وانتزعت آخر حليها وقدمته الى السجان فعرف وصودر

وفي يوم ١٤ اكتوبر جيء بماري انطوانت للمحاكمة وكان في مجلس القضاء رئيس وأربعة قضاة والمنفذ وكاتب السجل وخمسة عشر من المحلفين. وكان يلوح على وجوه الجميع ما قدر للملكة

والحقيقة ان فظاعة عهد الارهاب كانت قد بلغت حد الجنون ويقال ان الجلاد فوكيه تنفيل كان يقول انه يشهد بعيني رأسه أرواح قتلاه تهدده نهاراً فقد بلغ عدد ضحاياه من يوم ١٠ مارس سنة ١٧٩٣ الى يوم ٢٧ يوليو من السنة التالية ألفين وستمائة تسعاً وستين نفساً

تقدمت الملكة في ثوب ملطخ بالسواد
قال القضاة ـ ما اسمك؟
أجابت الملكة ـ ماري انطوانت دي لورين النمسوية
— ماهو شأنك ؟
— « أرمل لويس ملك فرنسا »
— كم عمرك ؟
— ثمانية وثلاثون

تليت ورقة الاتهام وتقدم الشهود وما كان آلم لنفسها من رؤية جماعة تعرفهم حق المعرفة وشرهم سيمون سجان ابنها ولما وجهت اليها تهمة العلاقة الفاسدة بينها وبين ابنها لم تحر جواباً . ولما سئلت في ذلك ثانية قالت وهي مالكة جميع قواها في ثبات عجيب . لم أجب لان الطبيعة ذاتها تأبى الجواب على تهمة توجه الى والدة . اني أستشهد بالسيدات الحاضرات وجميعهن أمهات أولاد في سن ابني الصغير

انتهى التحقيق وسئلت الملكة هل لديها ما تقوله فأجابت : « كنت ملكة فانتزعتم تاجي ، وزوجة فقتلتم زوجي ، ووالدة فحرمتموني أبنائي ، لم يبق سوى دمي فخذوه ولا تطيلوا عذابي » . ساد السكون وأصغت في هدوء الى الحكم عليها بالموت . وكان ذلك صباح يوم ١٦ اكتوبر سنة ١٧٩٣

سارت الملكة بعد ان احتملت محاكمة دامت عشرين ساعة في هدوء دون ان تلقي على قضاتها بل جلاديها نظرة لوم أو غضب

كتب سانت بيف عن ذلك : « لا أظن أثراً أدل على فظاعة

جنسنا وشناعة طبائعنا من محاكمة ماري انطوانت . فلو نظر انسان الى عصر يعد نفسه مستنيراً، بالغاً درجة عالية من الحضارة يختم عهده بعمل وحشي كهذا فلابد ان يشك في ان الوحشية الضارية التي تسكن أبداننا هي صاحبة الامر فينا »

كانت باريس صباح يوم ١٦ اكتوبر أشبه بمعسكر عام ، الجنود مصطفة في الطرقات والمدافع منصوبة ومنع السير في الطرق ما بين الكونسيرجري وميدان الثورة

نزلت ماري انطوانت من سجنها وما رأت العربة في انتظارها حتى جزعت غير ان جزعها لم يدم . استبسلت كعادتها وركبت العربة وخلفها ساسون ووكيله واخترقت شارع سان أوتور ، والشعب يلج حولها بهتافه المؤلم لتسقط النمسوية

سارت في موكبها هذا والجنود حولها حتى لكأنها تسير في موكبها أيام عزها والناس يهتفون لتحي الملكة

بينما كانت الملكة تصعد درج المقصلة وطأت قدمها رجل الحارس فالتفتت اليه في دعة قائلة: «أرجو اليك معذرة» كأنها تخاطب شريفاً في قصر . من ثم ركعت وصلت صلاة قصيرة ثم وجهت نظرها الى سجن التامبل وقالت وداعاً يا أبنائي اني ذاهبة للحاق بوالدكم

ربطت الى اللوحة وانحدرت سكين المقصلة وختمت مأساة ماري انطوانت

*

جوزيفين

١٧٦٣ — ١٨١٤



جوزيفين

إن في حوادث التاريخ ما هو أدعى للعجب من تخيل الرواة وأعجب ما دوّنه التاريخ من عجب حوادث جوزيفين أمبراطورة الفرنسيين

لم تكن جوزيفين على شيء كبير من التهذيب العلمي إلا براعة في الموسيقى والرسم والتصوير والرقص مما جعلها على علم دقيق بالمسائل الكبرى وألطف من يتحدث الى الناس في حدة نظر في الشؤون السياسية حتى قال عنها نابوليون انها أحكم وابصر مستشار به

مع اخلاص صادق لزوجها كان له أثره في جميع أعماله وكان إذا ذكرها قال عنها انها مرشده الامين

نذكر لجوزيفين قبل زواجها من بونابرت حادثتين : الاولى اذ كانت فتاة تمرح في مزارع عمها في الهند الغربية حيث شاهدت فتيات قعدن الى عجوز عرافة تكشف لهن عن مستقبلهن فدفعها الاطلاع الى التقدم اليها

ما أبصرت العرافة كفها حتى علتها دهشة

فقالت جوزيفين : ماذا ترين ؟

فقالت العرافة : لا تصدقين ما أقول

— تكلمي . تكلمي . هل هناك ما يخشى أم ما يرجى ؟

— أنت المسؤولة اذاً . إصغي اليّ

— ستتزوجين قريباً ولا يكون زواجك سعيداً وتصيرين ارملا — وبعدها تكونين ملكة فرنسا تقضين سنوات سعيدة ثم تموتين في مستشفى بين هرج مدني

لم تفكر جوزيفين في هذه النبوءة بل كانت تمزح بها مع رفيقاتها . ولكنها بعد أن تزوجت من الفيكونت دي بوهرنيه وسقطت رأس زوجها تحت سكين المقصلة وأودعت هي السجن حيث جيء أيضاً بمدام فونتني عاودتها تلك النبوءة فكانت تتلهى بها متشجعة زاعمة لرفيقتها انها لن يكون نصيبها الموت وانها ستكون ملكة فرنسا

كان المسيو تاليان من كبار رجال الثورة يحب مدام دي فونتني حباً جماً ويمر أمام سجنها كل يوم حيث كانت تبصر به هي وجوزيفين من النافذة الحديدية . رأته مدام دي فونتني يوماً فأومأت اليه ان

أقرب فدنا من النافذة فأسقطت له في ورقة كرنب الرسالة التالية :
« تقررت محاكمتي والنتيجة مؤكدة فان كنت تحبني كما تزعم فابذل جهدك لانقاذ فرنسا وانقاذي »

فزع تاليان لما يهدد حياة حبيبته فأطلق لسانه في «الكونفسيون» ضد الطاغية روبسبير حتى أهاج النفوس ضده وكان في ذلك سقوط رأس الطاغية تحت تلك المقصلة التي أذهب بها حياة الكثيرين وهكذا نجت مدام دي فونتني وجوزيفين واشتد يقينها ان ستصير يوماً ملكة فرنسا

والحادثة الثانية وقعت لها بعد خطوبة الجنرال بونابرت سارت به يوماً لاستشارة محاميها العجوز المسيو راجيدو ، تركت خطيبها في غرفة الاستقبال المجاورة ودخلت هي الى المحامي اطلعته على خطوبها من الجنرال فأبى عليها ذلك وأراها سوء حاله وشنع عليه وكان بونابرت يسمع ذلك على غير قصد . ساء رأي المحامي فيه فدافعته وكان المحامي يزداد في الحط من شأنه . لم يطق نابوليون صبراً فنهض عن مقعده ، أبصرت به جوزيفين فأسرعت وتأبطت ذراعه وانصرفا لا يتحدثان في شيء مما جرى الى ان دارت الايام دورتها وجاءت عشية تتويج نابوليون وجوزيفين فدعا الامبراطور المسيو راجيدو وأعاد اليه ذكرى مشورته وما سلف منه اليه من الهجاء . اعتذر الرجل بأن لم يكن له علم بالمستقبل فقال الامبراطور : « ان المستقبل فوق علم كل انسان » وبعد أن أبدى له سخطه عطف عليه وقال : « اني أحكم عليك بأن تحضر حفلة تتويجنا غداً وان تكون في مكان بحيث أراك وكان للمحامي العجوز في ذلك عقابه »

كانت جوزيفين اذا غاب نابوليون لا تستقر حتى تعلم أخباره فاذا كان في حرب أمرت أن يؤتى اليها بأنبائه في كل وقت تصل ليلا أونهاراً . ولقدقال لها يوماً بورين : « اني على يقين انك ستكونين على الرغم منك ملكة أو أمبراطورة » فأجابته جوزيفين : « لا أطمع في شيء من هذا وكل ما أتمنى أن أبقى زوجة القنصل الاول »

أما عنايتها بخدمها وعطفها على كل من حولها فكانت مضرب الامثال

ولقد سمعت مرة في ليلة باردة رجلا يسعل تحت نافذتها . عجبت أن يكون انسان في ليلة كهذه خارج منزله عرضة للرطوبة . سألت عن ذلك فقيل انه الحارس . فما كان منها في الغد الا ان استدعت الضابط وقالت له : « كفى ما يلقاه الجنود في الحروب من بلاء . فاذا راجعوا الينا وجبت العناية براحتهم ، اني لا أريد حارساً » ابتسم الضابط لعطف الامبراطورة وصرف الحارس وألغى مهمته

المعروف عن نابوليون أنه قليل التحدث بحيث انه لو شوهد يحادث أحداً عجب الناس وسجلوها عليه . وصفته جوزيفين في منزله قائلة: « انه دقيق الذهن رقيق القلب طيبه . سليم الذوق جامع لصفات الرجل المحبوب وله فوق عواطف الرجل الشريف ذاكرة واعية »

كانت جوزيفين شديدة الولع بالمصوغات وما اليها من الزخارف وكانت في هندامها بارعة الذوق كما كانت رقيقة العاطفة ، وقد بلغ حذقها في اتقان هندامها ان كانت تبدو أملك للناظرين من أخت زوجها بولين وهي آية من آيات الجمال ، وكان سبباً ما لتلك الموجدة

التي كانت الاخت تجدها على الزوجة . كانت جوزيفين كريمة اليدين سخية الطبع تغدق الهدايا على حاشيتها وكانت تكثر من الخلع على نسائها تخلع عليهن الثوب ولم تكن لبسته سوى مرة أو اثنتين، كثر ذلك حتى أصبح الخلع تجارة رائجة تبيعه السيدة الى اليهود الذين يعرضون عليهن مصوغات بحيث انه قد أصبحت الاميرات تتسابقن الى مشتراها من اليهود الذين كانوا يحصلون عليها من نساء حاشية الامبراطورة

لم تجد جوزيفين مشقة في اتخاذ الهندام اللائق بمقامها وهي زوجة القنصل الاول اذ كان الشأن بعهد الجمهورية ان يحتذوا حذو اليونانيين والرومانيين في أزيائهم

غير أن نابوليون في عهد الامبراطورية كان حريصاً أن يعيد بلاطه أزياء وتقاليد لويس الرابع عشر والخامس عشر يشتد في ذلك شدته المعروفة . وكانت جوزيفين بالرغم من كونها ابنة الثورة لم تكن أقل منه سرعة في الانتقال الى حالها الجديدة فكانت في هندامها ملكة حقاً وفي استقبالها ملكة حقاً لا تفرط في شيء

أنشأ نابوليون طائفة جديدة من الاشراف فكانوا قذى في أعين الاشراف العريقين يسوء هؤلاء اغفال شأنهم ورفعة جماعة كانوا من قبل سوقة أو لا خطر لهم

أما علاقة نابوليون بزوجته فلا يدلك عليها أبلغ من الحادثة التالية : هم نابوليون بعمل من أعماله فأرادته جوزيفين أن يعدل عنه بحجة ان ذلك يوم الجمعة وهو يوم نحس فأجابها الامبراطور : « قد يكون ذلك في رأيك أما أنا فان هذا اليوم أسعد أيام حياتي لانه

يوم زواجي منك »

جاء يوم التتويج ولا أدل على شعور جوزيفين بخطره من رسالتها الى البابا بيوس السابع حيث قالت : «اني أشعر وقد أصبحت أمبراطورة الفرنسيين ان من الواجب علي ان أكون لهم أما ، وماذا يقربهم الى قلبي اذا كنت لا أقدم لهم سوى أمان ؟ الاعمال وحدها هي التي يحق للشعب ان يطالب بها من يتولون حكومته »

كان يوم ٢ دسمبر سنة ١٨٠٤ يوماً مشهوداً فرغت له همم الباريسين وآل التويلري كافتهم وخاصتهم

ازينت جوزيفين زينتها الكبرى لبست الامبراطورة ثوباً من الحرير الابيض مطرزاً بالذهب ومحلى صدرها بالماس وعليه رداء من القطيفة قرمزية اللون عليه نقوش ذهبية وفوقه الماس

أما الجواهر فكان أهمها التاج والاكليل والحزام . يلبس الاول في الحفلات الرسمية والثاني يوم التتويج ويشد الثالث على خصرها وكلها مرصعة بالماس الوردي ويقال انه قد بلغت زنة عصبة الجبين وحدها تسعة وأربعين حبة

ولبس نابوليون يوم التتويج ما لا يقل في قدره وجلاله عما ارتدته الامبراطورة من القطيفة البيضاء المطرزة بالذهب والازرار الماسية والجوارب الحريرية وكان رداؤه كرداء الملكة الا انه أثقل وزناً فقد بلغت زنته ثمانين رطلا

قد قال في ذلك نابوليون لامينه مازحاً وهو يعرك أذنه : « حسن حسن كل هذا ولكن سنرى الحساب »

كانت الكنيسة في أفخم زينتها وقف نابوليون والى يساره

الامبراطورة يعاونها الاميرات وعلى يمينه اخوته وكبير مستشاريه وكبير أمناء خزائنه . جرت الحفلة الدينية في أربع ساعات ضربت فيها الموسيقى أنغاماً وضعت خصيصاً وكان يؤديها ثلثمائة عازف . عدا رجال الموسيقى الجرمانيين، وقف نابوليون وسط الحفلة وتناول التاج الامبراطوري ووضعه على رأسه . ثم أخذ تاج الملكة ووضعه أولا على رأسه بينما كانت الامبراطورة راكعة أمامه على قاعدة العرش ثم وضعه على رأسها وما انتهت الحفلة ووضعت التاج على رأسه حتى تجاوبت أصوات الهتاف: «يحيا الامبراطور لتكن الامبراطورة مباركة». والناس في الخارج يكررون الدعاء

كانت جوزفين تستيقظ الساعة الثامنة وتأخذ زينتها ثم تلقي نظرة على اثنتي عشرة صحيفة على الاقل ثم تستقبل الخياطات ومن لا تستقبلهم في غرفة الاستقبال . وبعدها تدخل غرفة الاستقبال حيث الوصيفات ومن تدعوهم لتناول الافطار . وتجلس عند الظهر الى المائدة ساعة على الاقل . وكان فطورها عند النهوض من النوم فنجان شاي بليمون ولا تتغدى مع الامبراطور لكثرة شواغله. وبعد الفطور تذهب اذا كان الجو جيداً الى مالميزون أو القنص

واذا لم تخرج استقبلت الزائرين يقدمهم الوصيف أو تقدمهن الوصيفة اذا لم تكن على معرفة بهم أما المعروفون فكانوا يدخلون اليها بلا دعوة ولا استئذان . عدا الحفلات الرسمية التي يتولى الدعوة اليها كبير أمناء الامبراطور

ومن الغداء الى الساعة الرابعة تستقبل اثنين أو ثلاثة من الزائرين في مسكنها الخاص أو تستريح . تذهب بعدها الى مخدعها

لتجدد ثيابها وهندامها حيث تستغرق ساعة على الاقل وهي تطالع أو تتناول شيئاً من المرطبات تستمر في ذلك حتى الساعة الخامسة ولا تستقبل أحداً في هذا الوقت لأنه وقت مجيء الامبراطور

ومتى جاء الامبراطور أخذ يقلب خزائن ثيابها ومجوهراتها ليتخير لها ما يلائم ذوقه. واذا وجد الامبراطور في ثيابها ما لا يعجبه صب عليها حبراً فتسرع جوزفين في استبدالها

تعود بعد ذهاب الامبراطور الى غرفة الاستقبال حيث تتوافد الاشراف والقواد وكبار الدولة من رجال وسيدات تقضي الوقت في الحديث معهم أو اللعب الى ان يعود الامبراطور في الساعة التاسعة ولا يبقى هناك إلا ربع ساعة ، هذا اذا لم يبدو له ان يلعب . يختار اللاعبين من السيدات والويل لمن يلاحظ له خطأ أو عبثاً وما أكثر ما كان يحدث له ذلك لانصراف ذهنه الى أعمال الدولة . ومتى انصرف الامبراطور انصرف الجميع

كان أهم ما تعنى به جوزيفين في ماليزون هو الزهور فقد بقيت حريصة على ميولها الزراعية حتى بعد ان صارت أمبراطورة اذ كانت على علم صحيح بالنبات والتاريخ الطبيعي ، وفرنسا وأوربا مدينة لها بالكاماليا . وفي ماليزون هذه كان يزورها الامبراطور بعد الطلاق فكانت تحسن لقاءه وتبقى معه في حديث مودة ساعات ثم تودعه حتى الدهليز

كانت جوزيفين من حيث ملامح وجهها أقرب الى الجمال اليوناني حلوة المنظر تلوح كأنها على شيء من الجمود الا انها لا تلبث ان تظهر في طلاقتها ونشاطها وسمو أفكارها ورقة عواطفها وكان

من حلاوة صوتها ورقة نغمها ان نابوليون لم يستطع مقاومة أثره في نفسه

حدث ان نابوليون عند ازماعه السفر الى جرمانيا في ابريل سنة ١٨٠٩ أبى على الامبراطورة صحبته الى ستراسبورج فبقيت على كدر

ما عتم الامبراطور ان أسرع بالعودة الى غرفة جوزفين وقال لها: « لقد قمت طويلا مقام الامبراطورة فعليك الآن ان تقومي مقام زوجة القائد، اني أسافر حالا وعليك صحبتي الى ستراسبورج »

ومن قوله: «ان جوزيفين تحسن النظر الى كل ما أحب وهي الملك الحارس الذي يصلي طالباً سلامة ونجاح زوجها » ومن أقوالها هي: « ان ذلك الرجل الذي أدهش حظ العالم وسما به الى أسمى عرش ليعرفني حق المعرفة لا أحب ولا أتمنى سوى ما فيه مجده . وليذكر الذين رموني بالتهم اني في سبيل اخلاصي له ووفائي لحبه أغضبت من كبار اللائذين به من في وجودهم خطر . ولو اني أغضيت عنهم لأوقعوا نابوليون في الهلاك . وكان اذا سخط على أحد من ضباطه في غير وجه دافعت عنه وأجهدت نفسي للعدول به وقد قال لي مرة في شأن أحد هؤلاء

— لي وحدي الرأي في التخلص منه والقضاء عليه

— لك الحق . لك الحق ولكن هذه اللهجة لا تتفق وطبيعة نفسك الكريمة

— من يعارضني . ؟

— أنت ، يا نابوليون . ان ذلك يسلح ضدك شجعاناً أنت في

حاجة اليهم . حقيقة ان الرجل العظيم لا يخشى شيئاً ، ولـكنه يأسر القلوب بعفوه،ان أول مهام الملوك وأقوى عمد العرش هو العدل

هكذا كانت جوزفين للعـدل والاحسان كل ميولها وبهذه استأثرت قلوب جميع الاحزاب حتى قال عنها نابوليون : «اني افتتحت الممالك وجوزيفين تكتسب القلوب » وقد حذرته مرة الأخذ بآراء المتزلفين من أصحابه فقال : « اني أحذرهم جد الحذر أنت زوجتي وصديقتي لا أريد سواك واني لأدوم سعيداً ما دمنا على وفاقنا والويل لمن يفصم منا عرى هذا الود »

غير انه في سـنة ١٨٠٩ أفسح صدره لوشايات المملقين « لا بد من الانفصال عن جوزفين، ان كريمات القياصرة لتفخر بأن تأتيك بوريث يحفظ اسمك الى الابد »

لم تلد جوزفين لنابوليون وريثاً من دمه فكان ذلك شر ما تذرع به أعداؤها . ولم يكن الطلاق ليقع لولا تألب أسرة بونابرت وخدمها وأتباعها ممن لم تستطع الامبراطورة اجتذابهم اليها . ولقد أطلقوا ألسنتهم بالشر ضدها مذ كان نابوليون في مصر وأكثروا من الاراجيف واختلقوا عليها الافتراءات الـكاذبة

كان جينو عماد تلك الحملة ودساسها الخبيث ومروجها الاثيم . كانت رسائل نابوليون اليها من مصر على عهدها من المحبة والثقة . غير ان سموم الاراجيف داخلت قلبه حتى كان منه اليها تلك الرسالة المشئومة يعرض لها ويظهر الريبة فيها

نقتطف من ردها عليه العبارات التالية

« أيمكن يا صديقي ؟ هل الرسالة التي وردت إلي أخيراً رسالتك؟

اني لا أكاد أصدق هـذا الخطاب اذا قسته برسائلك الحلوة . عيني ترى انها منك ولا بشك ولـكن نفسي تأبى أن تصدق بأن نفسك هي التي أملته عليك . ان شر ما يؤلمني منها انها لا بد آلمتك

« اني أجهل بما أسأت الى ذلك العدو اللدود الذي يعمل على خرابي ويحرك طمأنينتك . لا بد ان تكون هناك أسباب قوية حملت ذلك العدو على العابه والصاق أشنع التهم بي يسعى به الى من أخلص لي الحب والوفاء ومنحني ثقته » من المحتمل ان هذا الخطاب المؤثر لم يصل الى نابوليون الا بعـد عودته الى باريس حين كانت جوزفين غائبة ولم تكن لتبرح باريس لولا شوقها الشديد للقائه فأسرعت الى استقباله ولـكنها أخطأت طريقه فوصل قبلها . وهناك اجتمعت والدته واخوته وأقاربه يلحون على آذانه بأفظع التهم يفترونها على تلك الامبراطورة الفاضـلة البريئة . ساء الجميع صفح نابوليون عن جوزفين الـكل يبغضها واخوته على نوع خاص يطمحون الى امتلاك ما نميت من ملك ويعملون لتخفيف سلطان جوزفين على قلب الامبراطور وقد يكون في نيته تحقيق ما اعتزمه من توريث أوجين دي بوهرنيه عرش الامبراطورة فكان ذلك مدعاة للتعجيل في طلاقها منه

كانت تعرف من نابولبون انه لو ترك وشأنه لما فكر في الانفصال الا أن القوم تألبوا ضدها وكان شرهم ذلك الثعبان فوشه وزير الشرطة الذي لم يكن يعبد سوى مصالحه يسلك اليها كل مسلك ويميل مع كل حزب يتقلب من جانب الى جانب في غير شيء سوى تحقيق أمل يرجوه وقد بلغ من شأنه عند الامبراطور انه كان يدخل

عليه في مخدعه . نصحت الامبراطورة لزوجها بأبعاده فأبى وأبقى عليه الى ان وضحت له خيانته وانه يراسل انجلترا بواسطة جواسيسه فأقصاه ولـكن كان قد وقع القدر

كان فوشه يلح على أذن الامبراطور بالطلاق من جوزفين وإذ رآه متردداً تقدم الى الامبراطورة ذاتها وادعى ان قد علمت من الامبراطورهذا العزم فأولى بها ان تتقدم هي به الى الامبراطور. أنكرت جوزفين ذلك في استياء عنيف . كان فوشه هذا على رأس المؤامرة التي أحدثت التنازل عن العرش لأول مرة . وقال عنه نابوليون وهو في سانت هيلانه : « ان فوشه لئيم على كل لون ـ كاهن ـ ومن رجال الارهاب . وعامل في المذابح رجل يختلس أسرارك في هدوء وفي رياء . »

أخذ نابوليون قبل اقدامه على مصارحة جوزفين بعزمه على الطلاق يشير الى غايته تلميحاً وكانت تكظم غيظها وطوراً تحتج بأشد ما لديها تريه عدم وفاء حاشيته وتربص الملتفين حوله به . وتنذر ان يوم انفصالها عنه يكون يوم ابتداء سقوط نجمه

جرت الايام على ما يشبه السكينة فاذا به يوماً وقد تناولا الغداء يطلعها على عزمه صراحة . صعقت لهذا النبأ حتى أغمي عليها فاستعان نابوليون بالمسيو بورن على حملها الى مخدعها

ومما زاد نكبتها بلاء ان أبقى لها الامبراطور لقب الامبراطورة وجرى أمر الطلاق على انه اتفاق بينهما فكان لا بد لها من الظهور في الحفلات الرسمية . وكان شر أيامها يوم حفلة ذكرى التتويج حيث تراءت للمحتفلين في زيها الامبراطوري والابتسامة على شفتيها

والكآبة ملء فؤادها . لقد ظهر عنها هذا الالم النفسي في قولها لبورين . « تعلم اني جعلتك موضع أسراري وأطلعتك على ما كنت أعانيه من مشاق . لقد قمت بواجبي كزوجته الى النهاية وها أنا أحتمل صنوف آلام أحتملها صابرة . بعد ذلك بثمانية أيام عهد نابوليون الى شاياني في مواجهة الامبراطور اسكندر اذ كان عزمه الاول ان يصاهر حليفه أمبراطور الروسيا لا النمسا

جاء يوم ١٥ دسمبر سنة ١٨٠٩ فعقد المجلس الامبراطوري وتلا نابوليون كلمته المعروفة في الطلاق وأخذت جوزفين تقرأ ما أملي عليها من القبول واذ لم تستطع تناوله ابنها أوجين وتلاه عنها

وفي اليوم التالي أعلن الطلاق رسمياً في التويلري أمام الجميع تليت ورقة الطلاق ونهضت الامبراطورة باكية تعلن القبول ثم انسحبت على الأثر تخلو لنكبتها وأعداؤها يسخرون منها

في ليلة هذا اليوم كان نابوليون في غرفته وخادمه على وشك الانصراف واذا بالباب يفتح وتظهر على عتبته جوزفين بنفس تملكها الحزن وفي ثوبها الملكي الوضيء . حدقت بذلك الذي كان حياتها وسعادتها طويلا ثم غلبها الحب فترامت بين ذراعيه وصاحت بصوت يجمع بين الحنان والالم : « زوجي ! زوجي ! »

غلب نابوليون على أمره وأومأ للخادم بالانصراف وبقي الزوج والزوجة ساعتها الأخيرة . ثم انصرفت جوزفين الى مخدعها ودخل الخادم يطفيء النور فاذا بنابوليون يخفي وجهه في المساند وينتحب . ودعت جوزفين قصر التويلري والخدم بين البكاء والنحيب وانسحبت الى مأواها في مالميزون

غير أن أسرة بونابرت لقيت جزاءها من الهوان يوم حفلة زواج الامبراطور من ماريا لويزا وتجرع ألد أعداء جوزفين أمر كاسات الصفاء ذلك ان والدة نابوليون وملكات هولاندة ونابولي والاميرات اليزا وبولين والملكان لويس وجيروم كانوا في اجتماع يتحدثون عن حفلة الزواج المقبلة . واذا بمورا ملك نابولي الجميل يدخل عليهم في أفخر ثياب وأجمله فتصايحوا به ما أجمل ثيابك

فأجابهم مورا : « واني لمعجب بنفسي » وأبصر نفسه في المرآة التي كانت الاميرة بورغيس تستملح فيها جمالها . ثم قال : « هل تعلمن أيتها السيدات الجميلات انكن ستعرضن لسخرية أوربا ؟ » وكانت بيده ورقة مطبوعة

فقلن جميعهن في نفس واحد : ماذا ؟

أجابهن مورا بقوله : « أقرأن ياسيداتي الملكات واعلمن جميعاً وأنتن الملكات انكن غداً في كنيسه اللوفر ستبقين طول مدة الاحتفال حاملات ذيل رداء الامبراطورة كـنتكن »

قالت احداهن : « لن يطلب الينا نابوليون احتمال اهانة كهذه ؟ فأجاب جيروم ان ذلك ليس طلباً انما هو أمر . » وهكذا تم فعلا

كانت جوزفين اذا جرى أمامها ذكر ماريا لويزا تحرص الحرص كله ألا تفوه في حقها بكلمة تؤاخذ عليها . الا انها كانت تقول : « لن يحبها . لقد ضحى بكل شيء في سبيل سياسته أما زوجته الأولى فستظل موضع ثقته » لم تخدع نفسها في هـذا القول إذ كانت حقاً موضع احترام نابوليون توافيها رسائله ولا تنقطع عنها زياراته ولا ينفك عن السؤال عنهـا . بحيث رأى الجميع أن في احترامها رضاه

ولما وضعت ماريا لويزا ابنها من نابوليون أظهرت جوزفين عطفها بأن أهدت الى الطفل لعبة جميلة سرّ بها نابوليون ولكن ماريا لويزا أظهرت استياءها لأنها كانت تكره أن تذكر تلك التي سبقتها الى مقام الامبراطورة وكثيراً ما كانت تنهي زوجها عن زيارتها

على أن نابوليون بقي يختلس الفرص لزيارة جوزفين يتنزه معها في الحديقة ويفضي اليها بأعمق أسراره واثقاً بصدقها واخلاصها

كانت جوزفين تقضي أيامها بعد الطلاق بين ماليزون وقصر نافار تواسي الفقراء وتحسن الى اللاجئين اليها

واليك حادثة غريبة وقعت لنابوليون قبل سفره المشئوم الى روسيا ، فاجأ الامبراطور جوزفين على غير علم فاذا بها في مخدعها تطالع عبارة ديوقلتيان عن تنازله عن العرش : « يا من رأيتموني جالساً على العرش تعالوا وانظروا الخس الذي زرعت بيدي . » دهش نابوليون لهذه الصدفة وقال : «لعلي سأنتهي الى هذه الحال فافخر بغرس حديقتك الذي أغرسه بيدي . فيأتي الناس من جميع الامم يبصرون بنابوليون الفيلسوف »

فأجابته جوزفين: «ذلك خير وأحسن اذ نكون سعداء . ولكن لك زوجة وابناً . وكل ما أرجو ان أعينك بنصحي . أما اذا قلب لك الدهر ظهر المجن وتألب عليك أعداؤك فأت يا بونابرت الى ملجأي المحبوب »

كانت تتمنى جوزفين ان ترى ابن نابوليون فأمر الامبراطور مدام دي مونتسكيو أن تحمله الى البتي ترِيانون وهناك ذهبت جوزفين

للقائه . فما أبصرته حتى غمرته بحبها وداعبته في رفق وحنان قائلة :
« الآن أغتفر لتلك المرأة التي اغتصبت مكاني اعتداءها وأغتفر للامبراطور كل اخطائه في سبيل غبطة الوالدية »

ومن غرائب الاقدار ان العرش لم يأل الى أبن نابوليون بل الى أبن هورتنس بنت جوزفين زوجة لويس بونابرت . كأن العناية تقول للناس لا تفعلوا الشر رجاء لقاء الخير

ومن أقوال نابوليون لجوزفين عند ما اجتمعت عليه المصائب :
« كلما ضاق صدري يا جوزفين شعرت بالحاجة الى صديق حميم أطلعه على ذات نفسي وأبثه حزني والذي أدهش له ان الناس يتعلقون بدرس كل علم إلا علم السعادة . إني لا أجده إلا في العزلة ولعلي واجده هنا»

بعد هزيمة نابوليون ودخول الحلفاء باريس أبدت جوزفين من المروءة ما يشهد لها بالفضل ويخلد لها الذكر الحميد ذلك انها اعتزمت ان تقف الى جانب زوجها لتموت معه أو تنفى معه . شتان بين هذا وما فعلته ماريا لويزا التي غادرته في غير عطف ولا رفق كأن ابنها ابن جلف من الجرمانيين لا ابن رجل لا يقل عظمة عن قيصر أو اسكندر

بينا كانت جوزفين في قصر نافار جاءت رسالة من الوزير تاليران يبلغها بها رغبة الامبراطور اسكندر وملك بروسيا في مقابلتها

استقبلتهما الملكة وبعد ان أثنيا عليها وامتدحا عهدها وأسفا لخروج نابوليون عن مشورتها حين كان في وسعه ان يظل خير الملوك على خير مملكة . لم يكن منها إلا أن لفتت أنظارهما الى الجيش

الباسل وما قام به من الاعمال العجيبة وعطفها على ذلك الاسير الجليل

لم تنقطع عن جوزفين رسائل بونابرت وهو في منفاه بجزيرة ألبا . وكلها تنم عن يأس من الحياة الا انه في شوق لرؤية جوزفين

وكانت اذا تكلمت عنه قالت لقد كنت موضع أسراره لم يخف عني منها سوى ذلك الرأي الذي اجتلب عليه النحس ولو علمته لدفعته عنه

كان يوم ٢٩ مايو سنة ١٨١٤ من أيام الربيع الجميلة ، الزهور تزهو بجمالها والهواء يبعث بنسماته المنعشة ولكن جوزفين كانت تحتضر وكانت آخر كلماتها الاخيرة « جزيرة ألبا . نابوليون »

خرست وحزنت أوربا كلها لموت هذه الامبراطورة العظيمة وبكاها أصحابها وأعداؤها من أسرة بونابرت فذهبت وفية لزوجها كما عاشت وفية

*

الملكة فيكتوريا

١٨١٩ — ١٩٠١



الملكة فيكتوريا

إن أعظم من اشتهر في تاريخ انجلترا من الملكات هما اليزابث وفيكتوريا وكانتا على تناقض بيّن في طباعهما وشخصياتهما ، اليزابث عاهل غير متزوجة ، أنانية فخورة متطرفة لا يهمها سوى شخصها وفيكتوريا والدة رءوم شديدة العطف على أسرتها خير من تمثلت في شخصها فضائل الزوجية

شغلت حياتها القرن التاسع عشر كله تقريباً وشهدت انتقال انجلترا من ظلمة العصور الوسطى الى الحضارة الحاضرة فلا غرابة اذا عد عصرها أجل عصر عرفته المملكة الانجليزية

ولدت الكسندرينة فيكتوريا يوم ٢٤ مايو سنة ١٨١٩ وهي حفيدة جورج الثالث ملك انجلترا ووالدها ادوارد دوق كنت رابع أولاد الملك . ووالدتها فيكتوريا شقيقة دوق ساكس كوبرج وأرمل أمير لينينجن . توفي والد فيكتوريا وهي في الشهر الثامن من عمرها واعد للملكة العتيدة قصر كنسنجتون واقامت تحت رعاية والدتها دوقة كنت

كان والد فيكتوريا رقيق الحال كثير الديون اذ لم يكن مرتبا له سوى سبعة آلاف جنيه لاتكاد تقوم باوده توفي على اثر التهاب بالرئتين وكتب وصيته يوم ١٢ ينابر سنة ١٨٢٠ . واصبحت زوجته ارملا لثاني مرة وكانت لها ابنة من زوجها الاول تدعى فيدورا

لم تمض على وفاة دوق كنت ستة ايام حتى توفي الملك جورج الثالث وتلاه جورج الرابع مدة ثماني سنوات. وقد وقعت بعد شهر من وفاة الملك العجوز تلك المؤامرة التي اريد بها اغتيال حياة جميع وزراء انجلترا واضرام نار الثورة ولكن نبأها بلغ اسماع الوزراء وقبض على الكثيرين من المتآمرين وحكم عليهم بالموت

شبت فيكتوريا وكانت تكثر من اللعب مع اختها فيودورا تركب الخيل ولا تمل النزهات والكل يجاملها ويتلطف اليها لا يحرص على تقويمها سوى والدتها الدوقة ثم عهد الى المربية فرولين لهزن في تربيتها فآنست من الاميرة فيكتوريا فطنة وعناداً فاخذتها باللين والتحبب حتى ملكت قيادها وسارت في تربيتها على خير ما يرام

كانت فيكتوريا في السابعة من عمرها عند ما زارت جورج

الرابع لاول مرة مع والدتها واختها فيدورا وكان جاف الطبع غير محبوب من شعبه

مر الملك يوما باسرة الدوق كنت وهو في سبيل نزهته للصيد فدعا الاميرة فيكتوريا واختها الى صحبته . لم يرق الوالدة هذا الطلب ولكنها لم تجد بداً من الاجابة . صحبته الفتاتان وبينا كان القوم يشتغلون بصيد السمك سأل الملك فيكتوريا أي نشيد احب اليك فأجابته على الفور : « الله يحمي الملك . » فدهش الجميع لبداهة الفتاة على حداثة سنها

حدث ان قرر البرلمان حق فيكتوريا في وراثة العرش وأنها الوريثة المنتظرة فمنحها عشرة آلاف جنيه سنوياً تصرف على ورثة العرش . غير أن والدتها كانت تحرص إلا تبلغ ابنتها ذلك . بقيت فيكتوريا تمرح في لهوها ونزهاتها في سعة فكانت تقول :«انى أعمل ما اريد واني لفرحة لذلك . »

بقيت فيكتوريا تتلقى العلوم والموسيقى والرقص عن مربيتها لهزن والدين عن والدتها الى ان جاءت سنة ١٨٣٠ فتوفي جورج الرابع وتولى العرش اخوه وليم الرابع وكان هذا رجلا ذكياً اصلح الكثير مما افسده أخوه واعاد للتاج هيبته وكان كثير العطف على فيكتوريا بالرغم من بغضه لوالدتها . قالت عنه الاميرة وكانت حينذاك في الحادية عشرة : « انه لغريب الاطوار حقاً غير أن نياته تؤول على غير وجهها . »

وحدث أن خالها الامير ليوبولد غادر انجلترا ليكون ملك

البلجيكيين . فاستعاضت فيكتوريا عن الائتناس به بالمراسلة ومن اقوالها عنه : « انه والدي اذ لم يكن لي والد »

وعند ما بلغت فيكتوريا الثانية عشرة رؤي من الخير اطلاعها على حقيقة امرها فتقدم اليها معلمها الدكتور دافيس وطلب اليها ان تكتب سلالة العائلة المالكة . اخذت الفتاة في ترتيب الملوك والورثة وما انتهت حتى صاحت : « والدتي لا ارى بعد العم وليم من وريث للعرش الا أن اكون انا » ولما قيل لها هذا هو الواقع فكرت تفكير من ليس في سنها وقالت في تؤدة وروية :

« انه لامر عظيم قد يجد فيه الاطفال مفخرة ولكنهم لا يعرفون ما فيه من صعاب ، مقام جليل ولكنه مقام مسؤلية » ثم قالت في حركة حازمة : « ساكون صالحة »

كانت فيكتوريا في الرابعة عشرة من عمرها اذ زارها من جرمانية أبناء خالتها والدوق ورتنبورج ، وكان من عادتها ان تسجل في دفتر يوميتها ما يبدو لها من الخواطر . وقد سجلت في يوميتها هذه اعزازها ومحبتها لهؤلاء الشبان . عزيزي الكسندر . عزيزي ارنست . ولكن عند ما زارها ابنا خالها ارنست وهما الاميران ارنست والبرت . زادتهما اعزازاً ومحبة وشد ما كان اعجابها بالبرت رجل جد رقيق القلب ذكي العقل فكه العبارة في جمال رائع وأسلوب خلاب ما برحها حتى أخذ مكانه من قلبها

كانت الدوقة كنت قد اصدرت اوامرها الى رجال الجندية والبحرية ان يطلقوا النار تحية لها كلما مرت بيختها مع الاميرة فيكتوريا فساء الملك ذلك وامر الا تطلق المدافع الا للملك الحاكم

ورجاله . ومن ثم علم انها وضعت يدها على سبع من مباني قصر كنسنجتون بلا اذن منه ، فغضب لذلك غضباً شديداً وانتهر الدوقة في جمع حافل وكانت فيكتوريا الى جانبها فانخرطت في البكاء

كانت فيكتوريا في السابعة عشرة من سني حياتها وكان غاية ما يتمنى الملك أن يعيش حتى تبلغ السن القانونية وهي الثامنة عشرة فلا تكون والدتها قيمة عليها في الملك فكان له ماتمنى

جاء ملك البلجيك ليوبولد لزيارة انجلترا وبالرغم من اغضاء الملك وليم عنه سر سروراً عظيما اذ رأى ابنة أخته قد بلغت اشدها وهي على عهدها مولعة بالموسيقى والشعر وركوب الخيل والرقص في شباب ناضر وصحة زاهرة وكان يكثر من تزويدها بنصائحه وارشاداته ومعلوماته فيما يتعلق بالملك وسياسة الاعمال

مرض الملك وليم وساءت حاله فاسرع اليه رئيس اساقفة كانتربري وأدى له الرسوم الدينية لان الملك كان مؤمناً دينا حقاً . وفي صباح ٢٠ يونيه سنة ١٨٣٧ لفظ النفس الاخير

اسرع رئيس الاساقفة وكبير الامناء الى قصر كنسنجتون وكانت الاميرة لا تزال نائمة ، ايقظتها والدتها وجاءت لمقابلتهما ركع امامها كبير الامناء اللورد كونينجهام وأبلغها النبأ وأفضى اليها رئيس الاساقفة بفصيلاته وهكذا أصبحت فيكتوريا ملكة انجلترا

تغير شأنها في ليلة زارها عند الافطار ستوكر صديق والدها وخالها وكتبت الى اختها فيدورا والى ملك البلجيك ، وفي الساعة التاسعة تقدم اليها رئيس الوزراء اللورد ملبورن في ثيابه الرسمية وقبل يدها . وفي الساعة الحادية عشرة حضرت الملكة فيكتوريا اول

جلساتها لابسة ثوب الحداد في ابهة وجلال وهيبة وتلت المراسيم بهدوء وسكينة لم تكن تنتظر من فتاة مثلها أدهشت الجميع . وكانوا يبصرون بها خارجة وحدها في روعة . سارت الى والدتها وقالت :

والان يا والدتي هل انا الملكة حقاً ويقيناً . ؟

اجابتها الدوقة . ترين الامر كذلك

اذاً يا والدتي العزيزة ارجو ان تسمحي لي باول رجاء اوجهه اليك بصفتي ملكة . ارجو أن تدعيني وحدي ساعة

ابدت الملكة استقلالاً تاما بنفسها ولم يكن لوالدتها معها سوى الحب البنوي لا تسمح لها برأي ولا تدخل في عمل من اعمالها

قال عنها شالس جرفيل في ذلك الطرف: « ان الملكة على اكمل ما يكون ، السذاجة والطبيعة والفطرة االسايمة.وامتلاك النفس والشمم صفات جعلتها موضع اعجاب، ومحبة . جميع من حولها كل يحبها وكل يهابها . كانت مالكة على الدوام،وافتن وابهج والطف ملكة في العالم»

كان الاحتفال بتتويج الملكة يوم ٢٨ يونية سنة ١٨٣٨ احتشدت الخيالة في ابهج زي وازدحم الناس ايما ازدحام في سرور وغبطة لم يسبق لها مثيل جاءت الملكة في ثوب من القطيفة الفرمزية المطرز بالذهب وعلى رأسها عصابة ذهبية يحلي جيدها النشان الاكبر،وأقيمت أمامها ثلاث سيوف رمزاً للعدل والدفاع والرحمة يحمل ذيل ثوبها ثماني عذارى من الأسر الكريمة في ثياب فضية على رءوسهن الورود . دخلت الملكة الكنيسة وتقدمت الى العرش وركعت برهة بتعبد ولما نهضت تقدم رئيس الاساقفة ووجه بها الى الزوا الاربع منادياً :

« أيها السادة اني أقدم اليكم ملكة هذه المملكة لا ريب فيها . هل تقسمون لها يمين الاحترام ؟ »وكان جواب الجميع على سؤاله : « لتحيا الملكة فيكتوريا ! »

كان اللورد ملبورن رئيس وزرائها وكان مرشدها الحكيم على انها بالرغم من صداقتها له لم تخله من اعنات ، بقي صديقها الملازم لها سنتين متواليتين خوفاً عليها من تأثير سكرتيرها الخصوصي . كان يشتغل معها في الصباح ويركب معها بعد الظهر ويتناول العشاء معها لم يفتر لحظة عن الوفاء لها

كانت الملكة تعرف في نفسها قلة الخبرة غير انها كانت توجه الاسئلة الى الوزراء ثم تتمهل في إبداء رأيها تاركة لوزرائها حرية العمل . كان خالها ليوبولد يكثر لها من النصح في جميع الشؤون فكتبت اليه شاكرة وانها تطلب اليه رأيه في المسائل متى احتاجت الى ذلك . عين لها اللورد ملبورن وصيفاتها والتف حولها رجال حزب الهويج وكانت الملكة وأسرتها من هذا الحزب فكان طبيعياً ألا تحب جماعة التوري . لا تعرف من رجالهم أحداً فكان ذلك سبباً لمضايقتها فيما بعد

ما اجتمعت بالبرلمان حتى قرر لها مبلغ ٣٨٥٠٠٠ جنيه جعلت منه جانباً لتسديد ديون والدها

كانت فيكتوريا في مهمتها الجديدة بين العمل والانشراح تجد وتلهو مغتنمة فرص الحفلات الرسمية فترقص فرحة مسرورة وقد كتبت في يوميتها :« اني على حقيقة كثرة الشواغل أتلقى الكثير من قرارات الوزراء غير اني أجد في ذلك مسرة . »

لم تكن الملكة لتجد غنى عن وزيرها اللورد ملبورن ذلك الشيخ الاشيب . ولكن التوري انتصروا وتولوا الحكومة وكان لزاما ان تفارق حكيمها فبكت لفراقه بكاء مراً . بعثت الى الدوق ولنجتون فأوحى باستشارة اللورد بيل، لم يفلح هذا اللورد الخجول في اكتساب عطف الملكة وأشار بضرورة الاستعاضة عن وصيفاتها بغيرهن من أنصار حزب التوري . أبت الملكة ذلك وامتنع اللورد بيل لبقاء زوجات رجال من حزب الهويج في حاشيتها . سرت الملكة بعودة وزيرها اللورد ملبورن الى مقامه بجانبها

لم تبق فيكتوريا بعد اذ قضت سنتين في الحكم مع وزرائها ، تلك الفتاة الساذجة علمت كثيراً واختبرت كثيراً . لذلك أقلقتها رغبة ابن خالها العزيز البرت زيارته للقصر. كان البرت قد أتم دروسه في الجامعة وطاف أوربا مع البارون ستوكمر الذي كتب اليها غير مرة يمتدح صفات الامير . على ان الملكة أبلغت رئيس وزرائها ألا رغبة لها في الزواج وكتبت الى خالها ليوبولد : « الا رابطة ولا عهد بينهما . » غير ان البرت وأخاه ارنست وصلا يوم ١٥ اكتوبر وكان هم البرت أن يفض الامر مع فيكتوريا إذ لم يبق له صبر

دهش لملاقاتها ولم يأنس منها ما كان يعهد فيها من الاعجاب به . كانت تركب معه طويلا وتحادثه طويلا وترقص معه في الحفلات طويلا فاذا بها على غير رأيها الاول . لم يمض على وصول البرت أربعة أيام حتى بعثت اليه فيكتوريا تستدعيه . جلسا على حدة . فسألته اذا كان يوافق على الزواج منها . ولم يكن له طبعاً ان يتقدم اليها بمثل هذا السؤال وهي الملكة . فكان جوابه العناق ثم قوله بين

شفتيه : « اني لأكون سعيداً »

فرح الجميع لهذا التعاقد غير انه عند ما طلبت الملكة الى المجلس ان يقرر لزوجها خمسين ألف جنيه نفقة أبى حزب التوري عليها ذلك وأنقص المبلغ الى ثلاثين ألفا . أسخط الملكة هذا العمل وأرادت ألا تدعو اللورد ولنجتون الى حفلة العرش ثم انتهى الامر بان أرسلت الدعوة اليه

ما تم عقد الزواج في ١٠ فبراير سنة ١٨٤٠ حتى انطلقت الملكة فيكتوريا والبرنس البرت الى قصر وندسور وقد منح لقب البرنس كونسورت وقد عهد اليه بمهمة سياسية شاقة . وليس في دستور انجلترا شأن لزوج الملكة . شعر البرت انه ليس السيد في بيته وان لهزن والوزير الاول يديران دفة زوجته وهي خاضعة لهما . لم يكن البرنس الا أجنبياً غريباً . كان رقيقاً لطيفاً مع أصحابه ولكنه كان جامداً إذا لقي جمهور الناس . وكان ستوكمر صديقه الملازم له فكان طبيعياً ألا يروق في نظر الملكة

وقد بدا شيء من التباين في ميول الزوجين: هو يحب الخلاء وهي تحب لندن . يميل للسكينة وهي قد ترقص حتى مطلع النهار . يريد أن يجمع اليه العلماء والفلاسفة وهي تأبى الاهتمام لهم

جاءت وزارة التوري فكان لا بد من ابعاد ملبورن فانفرج أمام البرنس باب للتقرب . أبعدت نساء الهويج فقام للملكة مقامهن انسحبت البارونة لهزن فقوي مركز البرنس البرت . لم تجد الملكة عوناً ولا مشيراً فبدت حاجتها الى زوجها

قبل أن تلد الملكة أقيم البرت قيماً اذا توفيت الملكة . وضعت

فيكتوريا ابنتها البكر ودعتها باسمها. وفي نوفمبر سنة ١٨٤١ وضعت ولي العهد البرنس اوف ويلس . فتمت غبطة الملكة واشتد حبها لزوجها ومن ثم سعى هذا لاصلاح ذات البين بين زوجته ووالدتها دوقة كنت فاجتمعت مع ابنتها في قصر وندسور . شعرت فيكتوريا بالسعادة حقاً وسجلت لنفسها ذلك في يوميتها وأصبح حبها لزوجها شغفاً تجد فيه كل شيء ، لا يسرها اكثر من ملازمته لها . وقد قالت يوماً للادي ليتلتون : « ان الملكة امرأة سعيدة . »

فتح البرلمان وكان لا بد من العودة الى قصر بكنجهام ولكن الملك لويس فيليب ملك بروسيا وملك ساكسونيا كانا في زيارتها وكانت الحفاوة بهما بالغة أقصى حد . ردّت فيكتوريا وزوجها الزيارات الملكية وسرت جداً بمشاهدة موطن زوجها (جرمانيا) وكانت موضع حفاوة الجميع ثم زارت بلجيكا وكان سرورها عظيماً برؤية خالها

أما شأنها في الاعمال السياسية فكانت على عهده تجادل بشدة فيما لا تراه موافقاً مع الحرص على ألا تفسد أمراً أجمعوا عليه . وكانت تعنى عناية خاصة بألا يكون خلاف بين مجلس اللوردات وبين مجلس الاعيان . .

كان اللورد بالمرستون حملاً ثقيلاً على كاهل الملكة . كان مع شهرته الواسعة ميالاً لاقتحام المخاطر وهو الذي دفع بانجلترا الى الوقوف الى جانب الاتراك في حرب القرم ١٨٥٤ ـ ١٨٥٦ ذاقت بعدها انجلترا السلام أربعين سنة لم تقم انجلترا بحرب بعد واقعة وترلو . غير ان حرب القرم كشفت عن تضعضع الجيش الانجليزي

وسقوط هيبته في نظر أوربا حيث هلك من الانجليز خمسة وعشرون ألفاً . على انها كانت سبباً لنهوض السيدة فلورانس نايتنجيل بعملها العظيم في مواساة الجرحى في الحروب ونشوء جماعة الصليب الاحمر .

وكانت الحال في المياه الصينية حيث دام النزاع من سنة ١٨٣٩ الى سنة ١٨٦٠ ، ولم تكن غايته تجارة الافيون بل المسألة على ما أوضح الضابط اليوت في رسالته الى اللورد بالمرستون : « المعضلة الواجب حلها هي تفتح الابواب لتجارة شريفة مع الامبراطورية أو تترك السواحل لتجارة غير مشروعة تنقلب من شر الى لصوصية . » وفي سنة ١٨٤١ دخلت هونج كونج تحت حماية انجلترا وتولى حكمها السير هنري بوتنجر . وفي ظل هذه الحماية حل النظام محل القرصان وعمت المدينة في ثروتها وسكانها

عمل البرت بمشورة صديقه البارون ستوكمر فتدخل في الشؤون السياسية وأصبح ذلك الغريب قوة في انجلترا وهو الذي فكر في ذلك المعرض الدولي الذي أقيم في هايدبارك أول مايو سنة ١٨٥١ . كثر نقاده عند البداءة ولكن هؤلاء النقاد عادوا الى الثناء والاعجاب به إذ رأوا خاتمته وما أصاب من نجاح وكان مسرة لقلب زوجته وملكته

وبفضل البرنس البرت أصلح ذات البين بين الملكة واللورد بيل فعرفت فيه النبل والشجاعة والوطنية وسعة العلم والاضطلاع بالشؤون السياسية وبه عرفت للتوري فضلهم في خدمة البلاد . واذ أصبح البرت سكرتيرها الخصوصي أبيح له حضور الجلسات فكان عاملاً لا عل العمل

وكذلك قرب البرت بين الملكة ونابوليون الثالث الذي زارها

مع زوجته الامبراطورة أوجيني . عجبت فيكتوريا مما يستولي على البعض من بغض أشخاص وأشياء لا يعرفون عنهم قليلاً ولا كثيراً .

أعجبت الملكة بضيوفها وكانت أوجيني على أبدع ما تفاخر به فرنسا من الازياء ، عدا رقتها وجمالها واعتدالها غير أن هذا لم يكن ليبعث في نفسها شيئاً من الغيرة . ردّت الملكة فيكتوريا وزوجها الزيارة فألفت في فرساي كل ما ألفته في وندسور إذ قالت يوماً: « لو ان كلبي الصغير هنا لظننت نفسي في قصري » فما هي ردحة من الزمن حتى فاجأها نابوليون بما كانت تشتهي أحضر كلبها وإذ بها صبيحة يوم تراه يتمرغ عند قدميها فدهشت وسرت بذلك كثيراً . ومن أقوالها : « من يصدق اني أرقص الآن مع قريب لألد أعداء انجلترا واتخذه حليفاً »

وقعت تلك الحرب المشهورة سنة ١٨٧٠ بين الفرنسين والجرمانيين وكانت نتيجتها سقوط نابوليون الثالث ، فآوته هو وزوجته ، الملكة فيكتوريا كما آوت أسرة فيليب وأحسنت مثواهم

بلغ عدد أبناء وبنات الملكة فيكتوريا تسعاً تزوجت فيكي من البرنس فردريك وليم الذي صار امبراطور ألمانيا سنة ١٨٥٧ ثم تزوجت أليس من لويس أمير هيس ولكن الموت تعجل اليها فجاءت وفاتها عقب زواجها وعلى أثر وفاة والدها البرت ضربة مؤلمة لوالدتها

تزوج البرنس أوف ويلس من الاميرة الحسناء الكسندرا الدنمركية وتزوجت هيلانة من كرستيان أمير شلزويج هولشتين ، والاميرة لويزا من الماركيز أوف لورن ، والاميرة بياتريس من الامير هنري أوف باتنبرج، وتزوج الامير الفريد دوق ادنبورج من كريمة اسكندر الثاني

امبراطور روسيا ، وتزوج الاميرليوبولد أصغر أبنائها قبل سن البلوغ

كانت الملكة فيكتوريا في صحة تامة لم تذق للخوف طعماً غير انها في سنة ١٨٦١ فقدت والدتها ففقدت بموتها عوناً كبيراً ، ثم فجعت بزوجها غير متجاوز الثانية والاربعين من عمره فكان مصابها فيه عظيماً . ولقد كتب دزرائيلي عند موته العبارة التالية : « لقد دفنا ملكنا يوم وارينا البرت التراب . فقد حكم الامير الجرماني انجلترا اثنتين وعشرين سنة بحكمة وهمة لم نعرفها في ملوكنا . »

كان البرنس أوف ويلس كثير اللهو قليل العناية بشأن والدته غير ان موت والده ذهب بطيشه وهذب من طبعه وأثاب اليه رشده ومن ثم جاء تعلقه بالاميرة الدنمركية الكسندرا وزواجه منها فاستوى رجلاً رشيداً

كانت الملكة فيكتوريا كريمة الطبع تغتفر اخطاء المخطئين إلا الرياء والغباء . ذهبت أيام سرور الملكة وقعدت بها واجباتها كوالدة وأحزانها كأرمل عن مهام المملكة كره الشعب منها انقباضها إذ فرغت لمهامها وما كان يقوم به البرت . وقد نشرت خطبه وأقيم له تمثال في دهليز خاص لذكراه لم يكتب عليه سوى كلمة « البرت »

على ان شؤون المملكة بالرغم من انكماش الملكة سارت في سبيل التوفيق والسعادة بفضل وزرائها ، وكانت المنافسة على أشدها بين غلادستون ودزرائيلي . أحبت الملكة غلادستون بعد عداء وكان دزرائيلي رجلها العظيم

وفي سنة ١٨٧٤ عاد حزب التوري الى الحكم فانزوى معه غلادستون . وتولى صديقها الحكم فمنحته لقب لورد بيكونسفيلد وبذلك

خف عبء الاعمال عن كاهلها وأصبحت تضطلع بأعمال مجلس الوزراء ، وأخذت تخرج من حين لآخر من عزلتها وتشهد بعض الحفلات وتزور المستشفيات وتستعرض الجنود ، وابتدع لها اللورد بيكونسفيلد لقب امبراطورة الهند

قام ولي العهد برحلته الى الهند بين سنتي ١٨٧٥ — ١٨٧٦ فقضى أربع سنوات في طوافه تمكن أثناءها بلطفه وكرمه من استمالة نفوس الشرقيين وكان فيما تذيعه الصحف عن رحلته ما لفت الانظار الى الشرق . رأى دزرائيلي بنظره البعيد ضرورة العناية بالامبراطورية الشرقية وان لا بد لانجلترا من رقابة شديدة على قناة السويس فعني بابتياع أسهم خديو مصر وكان ذلك بدء تدخل انجلترا في شؤون الشرق وامتداد نفوذها في مصر حتى انتهى بهذا الاحتلال

وبعد ثلاثين سنة من ترمل الملكة عاد اليها نشاطها وخذل غلادستون وتقلد منصب رياسة الوزارة اللورد سالسبوري ففرحت الملكة به فرحاً عظيماً . أصبحت الملكة موضع حفاوة الشعب وهتافه لها في زياراتها الى أدنبورج وليفربول ، وفي سنة ١٨٨٧ أقيمت لها ذكرى السنة الخمسين لحكمها . فازدحمت الملوك والامراء في دير وستمنستر ولم يكن هناك سوى التهليل والفرح بأم الوطن

قضت الملكة ما بقي من أيامها متنقلة بين بالمورال وأودسبورن ووندسور وجنوبي فرنسا . ثم أولعت بجمع آثارها وآثار أبنائها وأحفادها ترصد كل أثر من لعب وثياب وهدايا وصور شمسية الى غير ذلك . وقد أبقت على بذلة البرت أربعين سنة . وكان لزاماً عليها ان تبدل الثوب كل يوم وان تضع ماء في وعاء . على طرف من العبادة

كان مبدأ الملكة في الحياة : « العمل والسرعة » تحرص على ذلك أشد الحرص والويل لولي العهد ان تأخر عن موعد العشاء

وفي سنة ١٨٩٧ كان يوبيلها الماسي وأقيمت في كنيسة سان بول حفلة الشكر . وسار موكبها في لندن بين هتاف الجماهير : « لتحيا امبراطورة الهند» وكان جواب الملكة : «ما أشد عطفهم علي! ما أشد عطفهم علي ! » وقعت حرب جنوبي افريقية في ابريل سنة ١٩٠٠ فزارت ارلندة ،وكأن ما انهكت به قواها مدة الثلاثة أسابيع قد أثر في صحتها، عشي بصرها وضعفت ذاكرتها ولم تعد تقوى على حمل عبئها . عاد روبرتس منتصراً وحادث الملكة يوم ١٤ يناير سنة ١٩٠١ وكان يوم ٢٢ منه خاتمة حياة الملكة فيكتوريا . فبكتها انجلترا كلها .

وعملاً بوصيتها أجريت الجنازة حربياً وحمل نعشها على السفينة البرتا وسارت بها بين البواخر الحربية منكسة أعلامها . ثم سار المشهد في شوارع لندن يتقدمه ولي العهد ادوارد السابع ،وحفيدها وليم امبراطور جرمانيا . وأذنت المدافع والاجراس الناس بسير الجنازة

كانت الملكة قد أنشأت في أرض فروجمور شبه متحف الى جانب قصر وندسور تذكاراً لزوجها ،ودفنت الى جانبه وكتب على قبرها العبارة التالية :

فيكتوريا — البرت
هنا أخيراً ارتاح الى جانبك :
ومعك في المسيح سنقوم ثانية

الامبراطورة اوجيني

١٨٢٦ - ١٩٢٠



الامبراطورة اوجيني

لقد أصاب روشفوكول في قوله : « كل شيء ممكن في فرنسا » والحقيقة انك لا تجد بلداً حدث به من الغير كالذي حدث بفرنسا : الملكية والامبراطورية والجمهورية وهي تتخبط بين هوان مذل أو ثورة دامية سواء أكانت في حكم الفالوي أو البوربون أو بونابرت . من فرساي ولويس الرابع عشر الى مالميزون وكامبيني في الامبراطورية الأولى والثانية الأفكار ذاتها والآراء ذاتها والاخلاق هي هي تحت أردية مختلفة

بلغت أسرة البوربون سنة ١٦٨٥ قمة مجدها . وكانت فرنسا تئن تحت نير الاستبداد . مائة وخمسون الف سري ينعمون بثروة

البلاد بين المرح واللهو وخمسة وعشرون مليوناً يكدون لاشباع نهمهم ، يطلب الشعب القوت فلا يجده ويجيبهم الاشراف « كلوا عشباً » والملك يقول : « الدولة أنا »

جاء ميرابو فقال : « ان المملكة على أسوأ حال ولا يصلحها سوى هزة عنيفة » ولكن الفرنسيين لا يقفون عند حد .جاءت الهزة العنيفة فثلت العرش وعملت المقصلة عملها الفظيع في ساحة الكونكورد

كانت الامبراطورية وكان المجد مطمح أنظار الجميع : ريفولي، استرلتز ، وترلو . ثم جاءت الامبراطورية الاولى بمجدها وانتصاراتها وتاجها وصولجانها ثم اختفت كأنها حلم نائم . عاد آل البوربون الى منازلهم وهبت العاصفة فانكشفت عن الجمهورية في مجد جديد وانتصارات جديدة . ثم انقلبت الجمهورية إلى الامبراطورية ثانية فاتجهت الانظار الى مجد سلمي . تولاها نابوليون الثالث وعمل على افتتاح عصر جديد وبناء امبراطورية قوامها السلام

رأى الباريسيون فيما أزينت به شوارع مدينتهم من معالم الزينة ومجتلى السرور ما شرح صدورهم . رأوا أمبراطورهم والى جانبه فتاة حسناء فتساءل الناس من تكون هذه التي تجلس جلسة جلال وتركب ركوب الفارس في غير خوف ولا وجل ؟

تلك أوجيني دي مونتيو كونتة « تيبا » . ولدت في اسبانيا سنة ١٨٢٦ في أقليم جرانادا . كان والدها من كبار أعيان اسبانيا ورثت عنه كرم المحتد ونبالة الطبع . هناك عرفها الكاتب الاميركي الشهير وشنطون ارفنج وكتب عنها الفصول الطوال منذ كانت فتاة

الى ان بهرت العالم بزخرفها وأبهتها اذ صارت امبراطورة فرنسا

تلقت اوجيني علومها في تولوز ثم بريستول وتخرجت تجيد الحديث بالاسبانية والانجليزية والفرنسية . بارعة الجمال شديدة الذكاء سريعة الخاطر . فلا غرابة ان أصبحت زهرة الربيع في لندن وباريس ومدريد

تعرفت اوجيني إلى نابوليون لأول مرة في لندن اذ كان منفياً من فرنسا ولم يكن من ميزة سوى انه حاول القضاء على حكومة لويس فيليب فلم يفلح . تلاقيا ثانية سنة ١٨٥١ وقد أصبح المنفي نابليون الثالث وكانت هي في المقام الاول من مبدعات الأزياء في باريس لفتت نظره وأخذ يصبو اليها الى ان دعاها لمشاطرته العرش. وفي يوم ٢٢ يناير سنة ١٨٥٣ أعلنت حفلة الزواج الى مجلس الشيوخ رسمياً . وقال نابليون في بلاغه ما يأتي :

« أيها السادة ، حيث أبلغكم اني آثرت امرأة أحبها وأحترمها على امرأة مجهولة قد يكون في اشتراكي معها الخير والشر متلازمين. ان التي آثرتها سليلة امارة . انها فرنسية القلب والتربية فرنسية بما سفكه والدها من الدماء في خدمة الامبراطورية ، وفي كونها اسبانية من الخيرانه ليست لها أسرة في فرنسا يتعين عليَّ رفعة شأن أفرادها وثراؤهم . انها على خلق كريم وخلال فاضلة وستكون زينة العرش . وهي كاثوليكية المذهب ستصلي معي لله من أجل سعادة فرنسا . واني على أمل وطيد انها بفضلها وصلاحها ستعيد في مقامها الجديد فضائل الامبراطورة جوزفين »

وفي يوم ٢٩ يناير عقد زواج لويس نابليون من الآنسة دي مونتيو مدنياً في قصر التويلري . وفي اليوم الثاني أقيمت الحفلة الدينية في كنيسة « نوتردام » التي لم تشهد حفلة كهذه في جلالها وفخامتها اذ جمعت النبلاء والاشراف والهيئات السياسية وجماعات الشعب وصفوف الجنود ورجال الفنون والآداب كما جمعت كل مظاهر الجمال والروعة . وأخيراً تجاوبت أصوات الهتاف : « لتحيا الامبراطورة » . ومن ثم عادت أوجيني وزوجها الى قصر التويلري

تزوجت نابوليون الثالث كما تزوج نابوليون الاول عن حب لا عن مصلحة سياسية ووقع له في حق أوجيني ما وقع لنابوليون الاول من الاراجيف ، ماله ولهذه الفتاة العامية كان الاحرى به أن يتزوج من بنات الملوك من توطد عرشه . ولكن أوجيني كانت أملك لزمام زوجها من جوزفين لنابوليون الاول

ولا بد هنا من الاشارة الى ان نابوليون الثالث لم يكن من سلالة نابوليون الاول فهو ابن لويس نابوليون ابن أخ جوزفين وابنتها هورتنس من زوجها الاول « الفيكونت دي بوهرنيه »

هبت ثورة سنة ١٨٤٨ ، فرنسا تطلب ملكاً حاذقاً يحكمها في سلام . وقامت لذلك بثلاث ثورات ضد لويس الثامن عشر وشارل العاشر ولويس فيليب وكان نصيبها الفشل

أرادت العناية الآلهية ان تضع تاج فرنسا على رأس نابوليون الثالث . والحقيقة انه ما من شيء أفعل من النجاح . عندما كان نابوليون الثالث في مجده مستوياً على عرشه كان الكتاب يغلون في اطرائه ويذهبون في الثناء عليه كل مذهب . ولكنه يوم أزيل عن

عرشه انطلقت في ذمه الالسنة والاقلام وانحط كل عليه تشنيعاً وتقريعاً بأقذع ألفاظ الهجاء على ان الحقيقة لا تضيع بين المغالاة والاغراق اذا ذكرنا فشله سنة ١٨٧٠ فلا ننسى له انتصاراته سنة ١٨٥٥ . لم يحكم فرنسا بالانصاف مثله ولم يعدل بها عن هرجها واضطرابها الى السكينة والطمأنينة مثله . لئن قيل عن اغسطس القيصر الروماني العظيم انه وجد روما من طوب «لبن» وتركها من «المرمر». فلا نجد من المبالغة ان نابوليون الثالث حقيق ان يقول ذلك عن باريس . فهو الذي خص باريس بعنايته وجملها بأحسن الآثار وهو الذي شاد القصور وأقام المعابد وجمل الشوارع وجددها تجديداً أخفى معالم باريس القديمة وأقام مكانها باريس الجديدة . وهو الذي أتم بناء اللوفر وأعاد بناء التويلري ومد في شارع الريفولي

ان من يعرف الشعب الفرنسي وما ركبت في صلبه من الاهواء المتناقضة يوقن انه لم يكن ليحسن ادارته سوى رجل مثل نابولبون الثالث . لا مرشد له سوى فطنته ولا سند له سوى متانة خلقه ، تولى حكمه في روية وحكمة وانتقل به الى هـذا المقام الذي جعل من الفرنسيين في نظر أوربا أرقى أمة ، فاض الخير من بين يديه وأذهب عنها أسباب الشقاء فكان مدى الاثنين وعشرين سنة مدة حكمه ، مجداً لفرنسا وموضع اعجاب العالم

انتهى التحالف بين فرنسا وانجلترا الى ما فيه خير الامتين . زار أمبراطور فرنسا والامبراطورة سنة ١٨٥٥ الملكة فيكتوريا في قصرها وكان ذلك أول ما سجل التاريخ عن أمبراطور فرنسي نزور أرض ألد أعدائه . فنابوليون هذا الذي كان من عهد قريب يطوف

شوارع لندن مفلساً لا يلتفت اليه أحد أصبح موضع حفاوة الجميع يقابل أينما سار بالحفاوة والاكرام وتقام له ولزوجته الحفلات يتسابق اليها الاشراف وكبار الدولة . وقد ردت الملكة فيكتوريا وزوجها البرت الزيارة فانتقلت حفلات الأفراح من لندن الى باريس

بلغت سعادة نابوليون أوجها يوم ١٦ مارس سنة ١٨٥٦ إذ رزق ابناً . أبلغ الامبراطور هذا الخبر الى مجلس الشيوخ قائلا : « لقد شاركني مجلس الشيوخ في سروري عند ما علم ان الله منحني ابناً . وقد حمد الله لميلاد « ابن فرنسا » أذكر ذلك عن عمد . والحقيقة ان الامبراطور نابوليون الذي تخير بعد الثورة اعادة [كل ما هو حسن في النظام القديم جدد هذا اللقب أبناء فرنسا] . والسبب أيها السادة انه متى رزقت الامة وريثاً يديم عهد نظام قومي لا يكون ذلك الوريث ابن أسرته فقط بل هو ابن الامة كافة . وفي هذا اللقب ما يعلمه واجباته »

لم يكن الامبراطور وزوجته يهملان شأناً يسر قلب الباريسيين ويوطد دعائم عرشهم ولكن حدث في أوائل يناير سنة ١٨٥٨ إذ كان الامبراطور وزوجته يسيران في عربتهما الى الاوبرا الايطالية القيت في سبيلهما ثلاث قنابل أريد بها اغتيال حياتهما . انفجرت تحت العجلات وذهبت بأرواح جماعة من حاشيته ولكن نابوليون وأوجيني لم يصابا بأذى

كان زعماء العصابة من الايطاليين وقد لقي بعضهم جزاءه الحق قال الامبراطور عن هذا الحادث في كلمة ألقاها في الجمعية

التشريعية : « أشكر الله لما منح الامبراطورة ومنحني من حمايته الظاهرتين . واني لحزين جداً لأن مؤامرة أريد بها اغتيال حياة واحدة أفضت الى الذهاب بأرواح الكثيرين . لنا في هذه عبرة . وهي أن العوامل التي تدفع الى هذه الوسائل المرذولة تدل على ضعف وحقارة مدبريها

« على انه ما من غيلة عادت على مدبريها بفائدة ما . لامن قتلوا قيصر ولا من ذبحوا هنري الرابع أفادوا شيئاً . قد يسمح الله بموت العادل ولكنه لا يسمح بانتصار الشرير . لذلك أرى في هذه الاعتداءات من يزعج حاضري ولا مستقبلي . ان سلمتُ سلمتْ معي الامبراطورية . وان رميت قويت الامبراطورية بموتي ان استياء الشعب والجيش يجعلها عضداً جديداً لعرش ابني . فلنواجه المستقبل بالثقة ولنوجه همنا لما فيه مصلحة وشرف وطننا . « الله يحمي فرنسا ! »

على ان الذي يؤسف له جد الاسف ان نابوليون الذي عرفناه سنة ١٨٥٨ بالادارة الحكيمة و سنة ١٨٦٧ بالفكر الصائب والقدرة الكافية لم نر فيه سنة ١٨٧٠ سوى قائد لا رأي له ولا عزيمة . كانت سنة ١٨٦٧ من سني الامبراطورية الثانية المعدودة إذ أقيم فيه ذلك المعرض الدولي الفخم . الذي أشعر نابوليون وأوجيني معاني المجد الحقيقي

ولقد امتازت أوجيني بأن أصبحت المصدر المبدع لكل ما يحدث في باريس من الازياء . إشتدت لهجة الناقدين على أوجيني لاسرافها في غير حساب . واتهمت بالرغبة في إعادة عهد الارستوقراطية على

ان الطامة الكبرى هي ما اتهم به من مشورتها لزوجها في المسائل السياسية فهي التي حثته على حملة المكسيك وهي التي دفعته الى ايجاد ايطاليا وهي التي حببت اليه تحدي جرمانيا

قدمت اليها يوم عيد لها جواهر فأوقفتها على بناء معهد تربي فيه بنات العمال وتصدقت على الفقراء بمبلغ عشرين ألف دولار من خمسين ألف أهداها اليها الامبراطور. كانت الامبراطورة ميالة الى السود من الخدم، كان لها نوبي مات فاستعاضت عنه بحبشي وما أكثر ما كانت تقيم من الحفلات والسهرات عند ما كان الامبراطور غائباً سنة ١٨٦٥ في الجزائر و سنة ١٨٧٠ في الحرب الفرنسية البروسية، كانت أوجيني القائمة مقامه وفي حفلة افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ركبت يختها النسر « L'Aigle » وتقدمت به الحفلة وسارت في طليعة الموكب البحري المؤلف من خمسة وأربعين سفينة فاجتازت القناة الى البحر الاحمر. ثم عادت يوم ٢٢ نوفمبر

في ١٥ يوليو سنة ١٨٧٠ أعلن نابوليون الحرب على بروسيا وكان قد ضاق ذرعاً بما كان يتخذه بسمارك من الاساليب والحيل لاحراجه. كان جيش البروسيين على أتم استعداد ولم يكن الجيش الفرنسي على شيء من ذلك. ثلاثة أسابيع فقط كانت كافية للقضاء على الامبراطورية الثانية وجيوشها. سلم نابوليون في سيدان وسيق أسير حرب الى دولهلمسهوه. دخل البروسيون فرنسا وساروا الى باريس ونام وليم ملك بروسيا في قصر الملك العظيم

كانت أوجيني في الايام الاخيرة مقيمة في التويلري تعاني الشدة والاضطراب. توالت أنباء الانهزام وأعلن حصار باريس على ان

الامبراطورة بقيت على شيء من الامل الموهوم . أرادت أن تركب جوادها وتسير في المدينة تعلن حل الجمعية التشريعية وتستحث الشعب ولـكن مع الاسف بحثت عن الثوب اللائق للركوب فلم تجده . كان الخدم عند ما اشتد الاضطراب قد اختلسوا ما استطاعوا من ثياب الامبراطورة ولعلهم أخـذوا ثوب الركوب فيما أخذوا فاضطرت الامبراطورة للعدول عن عزمها خشية ان تظهر في ثوب غير لائق. قال الوزير المؤرخ الشهير « تيرس » عن ذلك فيما بعد : « ان ضياع ثوب واحد أضـاع الامبراطورية . لو ان الامبراطورة قامت بما اعتزمت لـكان تاريخ تلك المواقع أقل خساسة مما دونه التاريخ »

ثارت الغوغاء يوم ٤ سبتمبر واجتمع حول التويلري خمسون ألفاً ينادون لتسقط الامبراطورية ، ليسقط بونابرت

أسرع السنيور نيجرا سـفير ايطاليا الى مسكن الامبراطورة وأبلغها : « ان قد حان وقت الهرب . لا تضيعي الوقت ، لقد دخل الثائرون القصر من جهة الـكاروزل » فارقت الامبراطورة شجاعتها ولـكنها عادت فاستجمعت قواها ثم وضعت يدها في يد السفير وقالت لنودع أصدقاءنا

فتح باب غرفة الاستقبال وظهرت الامبراطورة في هيئة تجمع بين الجـد والحزن محاولة الابتسام . بينا كان المودعون منخرطين في البـكاء . ولـكن البرنس ريشار مترنيـخ سـفير النمسا دفع بها وأغلق الباب

كان ميدان سان جرمان خالياً والعربة في الانتظار نزلت اليها الامبراطورة مسدلة على وجهها النقاب . وقفت أوجيني أمام اللوفر

ترسل النظر الى تلك الاعمدة التي استندت اليها كاترينة دي مديسي والملك ليلة سانت بارتلميو الشهيرة . أبصر بها صبي وكانت قد رفعت النقاب فصاح : « الامبراطورة. الامبراطورة » سمع الناس صوته فاسرعوا اليه . ولكن المسيو فرديناند دي لسبس أسرع الى الصبي وعرك أذنه وقال : « تصيح يحيا الامبراطور وقد أعلنت الجمهورية ؟ ستنال عقابك » ثم أطلق للعربة العنان فبلغت الشاطىء آمنة وابحرت الامبراطورة على اليخت غزال (جازل) وسارت الى انجلترا فاكرمت الملكة فيكتوريا مثواها وأنزلتها في قصر تشزلهرست حيث وافاها ابنها سوى لويس نابوليون وهكذا عفا الدهر على أحلام أوجيني

يرى الناظر سنة ١٨٧١ في قصر تشزلهرست سيداً في الثالثة والستين وسيدة وشاباً في الخامسة عشرة يعيشون فوق قطعة أرض انجليزية . ذلك السيد هو الذي كان بالامس امبراطور الفرنسيين وأعظم ملك في أوربا . لا تدري اذا كان يفكر في العودة الى التويلري أو يؤثر المقام حيث هو . وفي يوم ٩ يناير سنة ١٨٧٣ توفي نابوليون يعزيه وجود زوجته الى جانبه أما ابنه فكان غائباً . تحولت جميع أماني الامبراطورة الى ابنها ولكنه مع الاسف قتل في حرب ضد الزولوولند سنة ١٨٧٩ وأحضرت جثته يوم ١٢ يوليو الى انجلترا ودفن الى جانب والده

بقيت الامبراطورة وحدها لازوج لها ولا ولد، لا يعرف أحدعنها شيئاً ميتة هي أم على قيد الحياة . لولا حادثة غريبة وقعت لها روتها الصحف على سبيل الفكاهة

كان في حراسة فرساي شاب رأى سيدة عجوزاً في رداء اسود

تقطف زهرة . أسرع اليها وأوقفها في خشونة وجفاء رفعت رأسها شامخة وحدقت فيه بصرها. وإذا عابر يصيح به: «هذه الامبراطورة أوجيني » أدى الحارس التحية وأبقى لها زهرتها . وهكذا كادت امبراطورة الفرنسيين تقع تحت طائلة العقاب من أجل زهرة جنتها

قضت أوجيني ما بقي من أيامها في عزلة وقد ودعت جميع ملاذ الحياة وقد لفظت النفس الاخير يوم ١١ يوليو سنة ١٩٢٠ في مدريد بعد ان عاشت قرناً كاملاً ونشرت الصحف نعيها كأبسط الانباء ناسية تلك الملكة الجليلة وناسية آخر أثر لفرنسا الامبراطورية .

تزوهسي امبراطورة الصين الكبيرة

١٨٣٥ — ١٩٠٨

وصلت تزوهسي - أو يهونللة الى مقام السيدة المطلقة في الصين بأمرين : الاول ما فطر عليه الصينيون من احترام الشيوخ والثاني ما فطرت عليه هي من الدهاء والمكر السياسي

لم تكن تزوهسي من أسرة ملكية ولكنها من أقدم قبيلة منشورية ولدت يوم ٣ نوفمبر سنة ١٨٣٥ وقيد اسمها في سجل الحكومة شأن جميع كبار الموظفين المنشوريين . لايعلم شيء عن أيام صباها الا كغيرها من الصينيات. تربت بين جدران منزلها لا تبرحها أبداً . واذ كانت من أرومة منشورية كانت عرضة لأن يقع عليها اختيار الامبراطور فتكون احدى زوجاته الثانوية وقد أعدتها تربيتها لهذا المقام حتى الرابعة عشرة من عمرها

كانت السيدة نيوهولو والدة يهونللة الارمل تسكن مع أبنائها في بكين وكان منزلها كأكثر منازل المدينة قائما في حديقة ليس له سوى طابق واحد يحيط به « فرندة » تصل بين جميع أقسامها لينتقل السكان من أحدها الى الآخر دون أن تخرج من الباب كانت الحديقة كثيرة الغرس والزهور وفيها برك المياه يسبح فيها السمك وعلى حافتها تقضي الفتاة أكثر أوقاتها . وكان لوالدتها قريب يدعى موجانجا عني بتربية أولادها وإذ كانت يهونللة وافرة الذكاء ولم تضع وقتها سدى. حذقت فنون الادب والشعر وكان للتاريخ أعظم

نصيب من عنايتها

ولم يكن لهـا من الاصدقاء سوى ساكوتا ابنـة موجانجا وشاب آخر من أقاربها يدعى جونج لو يقال انه كان خطيبها منذ الطفولة

توفي الامبراطورتاوكوانج تولى ابنه هسيان فنج عرش الامبراطورية أصـدر مرسوماً بان تحضر الى الحريم كل فتاة منشورية بلغت سن الانتخاب

بلغ عدد المتقدمات الى هـذا الترشيح للزوجية ستين فتاة منهن يهونللة وساكوتا . فحصتهن السيدة الـكبيرة والدة الامبراطور وحماة الزوجات اختارت منهن ثمـانياً وعشرين ولا رأي للامبراطور في ذلك ، وكان من المختارات ساكوتا ويهونللة

لم يسمح ليهونللة بزيارة أهلها إلا بعد خمس سنوات وبعـد ان وضعت ولي العهد . اجتمع الاهل والاقارب للاحتفاء بها ولما قدمت المائدة جلست الوالدة في مرتبة أوطأ من ابنتهـا اكراماً لوالدة ولي عهد الامبراطورية ولما انقضى النهار ودعت الجميع مقدمة لكل هدية ووعدت أمها ان سوف تحصل لها على إذن بزيارتها في القصر

لم تكن يهونللة لتبلغ هذا المقام لولا احتيالها في اكتساب رضى السيدة الـكبيرة والدة الامبراطور وكان جمالها خير عون لها . توفيت تلك الحماة فرقيت يهونللة الى مقام المحظية الاولى ثم الى مقام تزوهسي بعد ميلاد ولي العهد ثم أطلق عليها لقب « بوذا العجوز »

ثم قامت ثورة خطرة استولى الثوار فيها على نانكين فأشـارت فاپي (يهونللة) أن يتولى تسنج كوو ـ فان قيادة جيوش الامبراطورية فأفلح وأخمد الثورة

كان الامبراطور هسيان ـ فنج خاملاً كسولاً لا يعني بالعلم ولا يفتح كتاباً ولما بلغ الخامسة والعشرين ولم يرزق وريثاً ظنه الكتاب آخر أسرته . وظهرت الثورة في جميع انحاء الامبراطورية . ولما رزق الوريث المنتظر عاد الناس الى الطمأنينة اعتقاداً منهم ان الله عاد فابتسم للعرش واصحابه . وفي هذه الاثناء رقيت ساكوتا الى رتبة الزوجة الثانية وأطلق عليها لقب تزو آن. غير ان « تزوهسي » تمكنت بمهارتها من التدخل في شؤون الدولة وأصبحت مستشارة الامبراطور في جميع أمور حكومته

أصيب الامبراطور هسيان فنج بفالج أقعده عن العمل فاصبحت « تزوهسي » بصفتها والدة وريث العرش ولما كانت عليه من متانة الخلق الحاكم الحقيقي صاحبة الامر والنهي وبعد ان كانت تتزلف وتتقرب ارتفع شأنها وعلت كلمتها وقسا طبعها واشتدت وطأتها . ورقيت الى مقام المحظية الامبراطورية « فايي » فمكنت يدها من كل شيء

أغار الانجليز والفرنسيون سنة ١٨٦٠ على شمالي الصين وأوقعت غارتهم الاضطراب بين الصينيين حتى انهم لم يفكروا في المقاومة . هرب الناس افواجاً من قصر المدينة الحرام (بكين) وهرب الامبراطور فيمن هرب غير انه دعا هربه هذا رحلة الخريف . أقام شقيقه الامير كونج حاكماً مطلقاً . وكانت تزوهسي قد نصحت للامبراطور بالمقام فلم يصغ اليها . كتب أحد كتابهم يصف هذه الحادثة فيما يلي :

« يظن بعض الامراء والوزراء ان المحظية يي (تزوهسي) أشارت على الامبراطور بالرحيل ولم يكن يشتهي غير ذلك . ولكنها عادت فأوحت الى اثنين من كتاب الدولة أن يسجلا عليه عمله هذا

وعليه صدر منشور بانه لا يجوز للامبراطور بحال أن يغادر عاصمته. ثم أصدرت المحظية ي مرسوماً بمكافأة من يقتل البربر

وفي اليوم التالي جاءت الانباء بحدوث معارك عن أبواب شيي هوّي. ما بلغت هذه الانباء أسماع الامبراطور حتى أسرع بمحظياته يصحبه الامراء والوزراء والدوقات وجميع ضباط القصر الى الهرب في حالة خبل لا يمكن وصفها. كأن قبائل من البربر أحدقوا به من كل جانب. والحقيقة ان الاجانب كانوا لايزالون بعيدين ولم يكن من سبب يحمل الامبراطور على مغادرة قصر الصيف. بالرغم من الحاح المحظية ي عليه بالبقاء لان في بقائه ما يضر باغراض الاجانب عدا ان فيه خير حمى للمدينة والشعب قائلة: «كيف يبقي الاجانب على المدينة متى علموا ان الامبراطور قد غادرها وترك عرشها خالياً ومعابدها خراباً؟» واستشهدت له بما أصاب أسرة شو إذ هرب ابن السماء من العاصمة. وحثا التراب على رأسه واضطر الى الالتجاء الى أمير من أمراء الاقطاعات. وان الشعب الصيني رأى ان هربه عاراً وهواناً وأنه ادعى للخزي والاحتقار

قضي الامبراطور بعد هربه ليلة في معبد يبعد عن القصر ثمانية عشر ميلا وهناك أبلغه الامر كونج بتقدم الاجانب، فأجابه انه لا يستطيع إصدار أوامر وهو بعيد وانه يترك له تصريف الامور ما بلغ مدينة جي ـ يون هيان حتى أخذ منه العياء كل مأخذ ولم يقو على عقد جلسات. فأناب «تزوهسي» عنه في جميع حقوقه الرسمية، فاصدرت المرسوم التالي:

« علمنا ان البربر يشددون على عاصمتنا، وقد طلب الينا الامراء

والوزراء ان نطلب نجدات من الاقاليم . وأهم ما يجب في الحرب الحاضرة هو الاخذ على غرة والمباغتة المفاجئة في ترتيب حسن وتدبير حكيم . ان قوة الاعداء في أسلحتهم النارية فاذا اجتذبناهم الى ملحمة يدوية بطل عمل مدفعيتهم وكان نصرنا مؤكداً . إن خيالة منجوليا ومنشوريا لا يغنون في هذه الحرب فتيلاً . أما رجال هوبي وسوشوان فهم أسرع من القردة وأصلح لمفاجأة الاعداء . ومتى أخذوهم على غرة كانت الهزيمة أمراً محتوماً . وليرسل الينا تسنج كوو فان نائب الملك في هولوانج بثلاثة آلاف جندي لحماية بكين وليأت الينا مثلهم من سوشوان . لقد انهزمت جنود الامير سانج مراراً وأصبحت العاصمة في خطر . ان حرج الموقف لا يسمح بالتسويف . والامل وطيد ان نجمع من الجنود ما ندرأ به هذه الغيمة السامة ولكل عمل عظيم جزاء عظيم . . هذا مرسوم خطير جداً . . »

أمرت «تزوهسي» الامير كونج ألا يبقي على أحد من أسرى البربر ولكن الامير رأى اخلاء سبيل جميع الاسرى فاتهمت بريطانيا الصين بالخروج على قوانين الحرب بتعذيب رجالها حتى الموت وطالبتها بتعويض قدره خمسمائة ألف تايل ، وقد دفع العوض وأجيبت المطالب الاخرى بلا تعديل . وإذ علمت «تزوهسي» بتسليم الامير حثت الامبراطور على متابعة القتال ولكنه كان من الضعف بحيث لا يقوى على مغادرة « جهول » فوافق على معاهدة الصلح

ان الذي أشار على الامبراطور بمخالفة رأي «تزوهسي» هو سوشون أحد مستشاريه ولما أراد الامبراطور العودة الى العاصمة

وكانت العلة قد اشتدت عليه وظهر اقتراب أجله . رأى هذا المستشار وشريكاه الاميران بي وتوان هوا أن يستخلصوا لانفسهم الوصاية على الامبراطور القاصر ولم يكن لهم لبلوغ هـذه الغاية من وقيعة يبعدون بها«تزوهسي» عن الامبراطور ، وقد وجدوا في ذلك الشاب جونج لو صديق المحظية الذي كان رفيق صباها موضعاً لاثارة الريب في نفس هسيان ـ فنج . ادعوا على المحظية انها تقرب هـذا الشاب اليها وفي ذلك جرم يوجب السخط عليها ونفيها الى « القصر البارد » حيث تعتقل المغضوب عليهن من محظيات الامبراطور. فأبى عليهم ذلك . ألحوا عليه بالنميمة،فلم يجب لهم طلباً ولم ير من وجه لعقابها . غير انهم ما زالوا به حتى أمر أن يؤخذ منها ولي العهد ويعهد في تربيته الى زوجة الامير بي

أحست يهونللة وحاشيتها بسخط الامبراطور إذ أبى مقابلتهن . وازداد الرعب في المدينة إذ رأوا كل من غضب عليه سو شون كان نصيبه السجن يرميه بالتهمة حتى اذا افتدى نفسه بالمال أطلق سراحه وبذلك جمع ثروة طائلة

أحس هؤلاء المتآمرون بما تضمر لهم«تزوهسي»من شر إذ بعثت تستعجل الامير كونج في أن يرسل اليهاجيشاً يقيم في جهول فاجتمعوا حول المريض وأثروا عليه حتى أصدر مرسوماً بتعيين بي وتوان هوا، وسوشون أوصياء على ابنه بعدموته وحرم على«تزوهسي»رقابة ابنها الذي كان في الخامسة من عمره

توفى الامبراطور ونودي بابنه تونج شـيه امبراطوراً . وقرروا تعيين ساكوتا وتزو هسي في مقـام واحد يطلق عليهما معاً لقب

الامبراطورة الكبيرة . وقد اضطروا الى ذلك لموالاة جيوش منشوريا للامبراطورة الكبيرة تزو هسي . ثم أصدروا قراراً رسمياً آخر بتعيين أنفسهم وصاة على الامبراطور القاصر أيضاً لا على المملكة وحدها . .

لم يعمل هؤلاء المتآمرون للامبراطورة تزوهسي حسابا . أخذوا يصدرون المراسيم ولكن لا بد لصحة هذه من ختم المملكة وأين هو؟ لقد أخفته الامبراطورة ورأى الناس المراسيم بلا ختم فثاروا ضدها، وإذ كان سو شون بغيضاً في نظر الجميع اشتد سخط الاهالي ورموه بالعبث بشؤون الدولة وفشت الضغينة ضدهم حتى بلغت بكين ، وهناك عقد الاعيان جلسة أقاموا فيها الامبراطورتين وصيتين على المملكة والقاصر تعملان معاً مع اسدال الستار . وكان هذا الستار حاجزاً أمام العرش تسدله الامبراطورة في الجلسات الرسمية تحجبها عن أنظار الوزراء . ثم أخذ في اعداد جنازة الامبراطور

وعملاً بالمألوف من عاداتهم أحضر أولئك المغتصبون جثة الميت الى بكين وقدموا تقريرهم الى الامبراطور الصبي في جلسة رأستها الامبراطورة «تزوهسي» فقالت في هوادة : « باسم شريكتي واسمي نشكر لكم الخدم التي أديتموها ونعلن إقالتكم ، انتهت مهمتكم فانتهت وصايتكم » احتج الامير يي بانه الوصي الشرعي وانه لا ينزل عن الوصاية حتى يبلغ الصبي رشده

فأجابت الامبراطورة في هدوء : «لا شيء من هذا» ثم التفتت الى الحرس وقالت: «اقبضوا على هؤلاء الثلاثة» ثم أجرت الجنازة في حفاوة وجلال تحرسها جنود جونج لو ولم يكن للمتآمرين مندوحة

عن الخضوع . كانت الامبراطورة الكبيرة حينذاك في السادسة والعشرين من عمرها وبقيت الى آخر أيامها الحاكمة المطلقة ولم تكن شريكتها سوى صورة وهمية

ومن ثم أصدرت باسم ابنها مرسوماً: «أتهم أولئك الاوصياء المختلسين بالاعتداء على حقوقي ومحاولة خدعي ولكنهم لن يخدعوا الامة، وإذ كان مسلكهم هذا جريمة ضد الامبراطورالراحل وضد الشعب ، فعليه نأمر بحرمان تسه يوان (الامير يي) وسو شون وتوان هوا من مناصبهم . »

ثم صدر مرسوم آخر بمصادرة أملاك سو شون وكانت تقدر بالملايين من الدولارات لكثرة ما اختلس وارتشى ونهب

ولما اتضح من تقرير الامير كونج واللجنة الامبراطورية اجرامهم واستحقاقهم الموت بالتعذيب أظهرت الامبراطورة الكبيرة «تزوهسي» عطفها عليهم وسمحت لهم أن ينتحروا

بلغت «تزوهسي» قمة مطمعها ولكنها أخذاً بعبر التاريخ رأت ان حكومة المرأة لا ترضي الرجال فكانت تصدر المراسيم باسم ابنها ولا تظهر هي إلا في مقام عفو أو عطف وبذلك اكتسبت رضى الشعب يدعوها الام العطوف. كانت الامبراطورتان تعقدان كل يوم جلسة في القصر يحضرها الامير كونج بصفة مستشار إلا انه أخذ يثقل على «تزوهسي» فانتهزت فرصة تقصيره في أداء الخضوع لمقامها فأمرت الحرس بالقبض عليه مدعية انه يدبر خيانة . نفي كونج من القصر ولكنه أعيد اليه بأمرها عن خوف من غدره أو حاجة الى مشورته

ما انقضت مدة الحداد وهي سبعة وعشرون شهراً حتى راجت بين الناس

الاشاعات عما يحدث في القصر من ضروب المجون والخلاعة وتحكم الخصيان في شؤون الصبي وانصراف الامبراطورة الى اللهو وتمثيل الروايات . لهج الناس بذلك وقدمت الشكاوى والاعتراضات فاصدرت الامبراطورة . . بلاغاً تنفي فيه ما أشيع وانها أحرص ما يكون على تربية ابنها تربية صالحة تسعد بها الامبراطورية

وحدث ان الامبراطورة «تزوهسي» بعثت بخصي يجمع الضرائب فأساء السيرة وا كثر العسف حتى ضج الحكام ورفعوا الشكاوى ضده الى كونج . فلم يكن من الامير إلا انه أقنع الامبراطورة الثانية تزو آن أن تصدر مرسوماً بقطع رأس آن ت ـ هي بلا محاكمة . خشيت الشريكة غضب زميلتها ولكنها أمضت الامر

لم يبلغ الخبر اسماع تزو هسي إلا بعد نفاذه ، فعينت مكان خصيها المحبوب خصياً آخر يدعي لي ليان ـ ينج فكان شراً من سلفه يتحكم في الجميع ويتصرف في أرواح الملايين من الناس

بلغ تونج ـ شيه السابعة عشرة وأعلنت جلالتها بلوغ ابنها سن الرشد وصلاحه لتولي الحكم وتخير له الفلكيون يوماً موفقاً وهو يوم ٢٨ نوفبر سنة ١٨٧٢،ونزلت له الوصيتان عن حقوقهما ونصحتا له باصلاح حكومته والبلوغ بها مبلغ الكمال

نشأ الامبراطور الشاب خليعاً مفتوناً فلم يكن يعنى باحترام والدته ولا الاخذ برأيها بل كان يؤثر عليها تزو آن شريكتها .

اختارت له والدته زوجة آ ـ لو ـ ته . فكانت هذه أيضاً حرباً على حماتها تنصح لزوجها ألا يستشير والدته في مهام الدولة .

لم تدم مدة حكمه سوى ثلاث سنوات أصيب في آخرها بالجدري

وهو في عرف الصينيين بركة إلا انه كان القضاء على الامبراطور فرحل في ينار سنة ١٨٧٥ رحلته الاخيرة . ولم يترك نسلاً

عقدت «تزوهسي» جلسة مستعجلة وبمساعدة وفيها جونج لو وأنصاره عينت ابن الامير شون وريثاً للعرش وبذلك انتقمت لخصيها آن ت - هي من الامير كونج وحصرت ارث العرش في ابن أختها التي تزوجت من الامير شون . وسرعان ما استدعت ابن أختها والقوم يلحون عليها بالتمهل لاشتداد البرد في تلك الليلة ولكنهم رأوا الوريث الجديد في القصر مع مربياته وخدمه . وعادت الامبراطورتان الى الوصاية وكان هذا انتصاراً عظيماً ثانياً لتزو هسي

دعي عهد الامبراطور الجديد من قبيل التفاؤل العهد المجيد . غير ان الارمل التعسة آلو ته اشتد بها الحزن لموت زوجها ولانها لم ترزق وريثاً فانتحرت . وتلا انتحارها انتحار آخر ذلك ان العالم ووكوتو انتحر احتجاجاً على جريمة اختيار ابن شون وريثاً للعرش أساء هذا سمعة الامبراطورة «تزوهسي» وكان له أثر في عقلها

لم يسخط الامبراطورة «تزوهسي» اكثر من علمها ان الامبراطور الشاب كوانج هسو يؤثر عليها شريكتها تزو آن . إلا انها عرفت كيف تستميله اليها .. وحدث ان شكت اليها تزو آن فظاظة خصيها وما يدعيه لنفسه من الالقاب التي تكاد تكون ألقاب الامبراطور . انقلبت هذه الشكاة الى شجار استفحل أمره . لم تمض على ذلك أيام حتى مرضت تزو آن مرض الموت وقيل في ذلك ان الكعك المسكر الذي بعثت به «تزو هسي» اليها كان مسموماً .

استمرت « تزوهسي » تحكم وحدها ثماني سنوات حتى

بلغ الامبراطور الجديد العشرين من عمره . اختارت له زوجته ابنة أخيها ولكنه لم يمل اليها بل كان يؤثر البقاء بين أكبر المحظيات

بلغت «تزوهسي» الخامسة والخمسين من عمرها فانسحبت الى قصر الصيف تتفرغ للانس والانشراح وتنفق في غير حساب . ودام هذا شأنها مدة عشر سنوات إلا أنها بقيت تسيء الى الامبراطور الذي كان من المتعين عليه أن يستقبلها راكعاً عند عتبة الباب واذا ذهب الى زيارتها بقي راكعاً أمام بابها حتى يؤذن له وكان الخصي يتعمد الاساءة اليه باطالة مدة ركوعه . وقد تعتذر هي أحياناً بانها في حديث مع خصيها ولا تستطيع استقباله فيبقى في انتظار نهاية ذلك الحديث . .

أخذت سنة ١٨٩٤ تعد مهرجاناً عظيماً في القصر لم يسبق له مثيل احتفاء بعيد مولدها الستين . وفي هذه السنة وقعت حرب اليابان وكانت خاتمتها إذلال الصين فرأت الامبراطورة من اللياقة العدول عن هذا المهرجان وان كان أمرها في ذلك يشف عن كدرها الشديد

توجه اللوم في الحرب اليابانية الى لي هونج شانج نائب الملك ولكن الامبراطورة «تزو هسي» دافعت عنه وأوقعت اللوم كله على الامبراطور الذي أقدم على هذه الحرب بلا استشارتها ولا موافقتها

ومن سوء حظ الامبراطور ان سعى الى مؤامرة يقبض فيها على «تزوهسي» وتعتقل في جزيرة صغيرة بتهمة الاسراف في أموال الدولة ولكن هذه المؤامرة انقلبت وألقي القبض على الامبراطور ذاته وعادت «تزوهسي» الى الحكم . ولكنه كان حكماً مزعزعاً

في سنة ١٩٠٠ قامت في الصين تلك الثورة الرهيبة المعروفة

بثورة « البوكسر » (الملاكمون) « وهي ترجمة عبارة صينية معناها قبضة النظام العادل » وترجع أسبابها الى ما قبل وقوعها بسنوات عدة . تعهدت الصين أن تدفع الى اليابان غرامة فادحة عقدت لتسديدها عدة قروض في أوربا . كانت تنزل الصين في كل منها عن ميناء خصب أو امتياز بثمرة . ضاق الصينيون ذرعاً بتدخل أولئك الروسيين والجرمانيين والفرنسيين والانجليز في شؤونهم وبلادهم فهبوا يطردون من وطنهم أولئك الشياطين الاجانب

هبت الثورة يعضدها الاشراف والامبراطورة ذاتها ولكنها كما هوالمعروف فيالثورات خرجت منأيدى قادتها الىالغوغاء والمجرمين. فاضطرت الدول أن تبعث جيوشها لاخماد نار تلك المذبحة فضربتها جيوش أوربا ضربة كادت تكون القاتلة . وفرضتعليها غرامة ثقيلة جداً . مارأتالامبراطورة«تزوهسي»تقدمجيوش الاجانبحتىلاذت بالفرار وقضت ليالي فيهربها من أسوأ مايلقى المعوزون والبؤساء على انها كانت قد انتوت الانتحار ولكنها عادت فعدلت عنه

عقد الصلح وعادت الامبراطورة الى القصر وقد أحست بحاجة البلاد الى الاصلاح غير ان ذلك الاصلاح لم يكن في عرفها سوى إعادة بناء ما تخرب من معابد وقصور

عاشت «تزوهسي»سليمة البنية تعزو ذلك لنهوضها باكراً وكثرة شربها اللبن وقلة الطعام . مع انها كانت مدمنة على شرب الأفيون تتناول منه باعتدال ولما أبانلها الاطباء اضراره أمرتبابطال تجارته. كانت شديدة الاعجاب بالملكة فيكتوريا ترجو أن تعيش عمرها وقد رأت صورتها ولكنها لم تسمح ان يتجر بصورتها هي

ولما عادت الى العاصمة صافت الامبراطور حتى انها كانت تستشيره فيما يعرض لها من الشؤون وتطلعه على مراسيمها قبل صدورها . واذ رأته مريضاً أعفته من التقاليد في السجود أمامها قائلة في لطف : « أوثر أن أراك معافى على أن أراك تضرب الارض بجنبك »

وفي سنة ١٩٠٣ أقيم الاحتفال الثالث والسبعون لذكرى ميلادها وكان الامبراطور من الضعف بحيث لم يستطع المقام في الحفلة . زارها الداله لاما مهنئاً وقد ساءه عدم وجود الامبراطور غير أن العجوز (تزو هسي) كانت تعرف سوء حاله . استمرت الحفلة في هرجها وقد ظهرت فيه جلالتها بمظهر آلهـة الرحمة

واذا كان اليوم بارداً أخذتها الرعشة ومرضت . ولزمت الفراش . اشتد المرض على الامبراطور أما هي فكانت ارادتها أقوى من مرضها لذلك والت النظر في شؤون الدولة

وفي يوم ١٤ نوفمبر توفي الامبراطور فأصدرت مرسوماً بتعيين الامير شون قائم مقـام . وعينت ابنـة أختها أرمل الامبراطور امبراطورة كبيرة محتفظة لنفسها بلقب الامبراطورة الـكبرى .

أحست تلك الليلة بضعفها يتزايد ورأت ان أجلها يدنو . عقدت مجلساً للحال . واذ كان المجلس يتداول تنبهت وتناولت المرسوم وكتبت عليه بيدها : « لقد صار من واجبي الذي لا مناص منه ان أتولى الوصاية »

وفي الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم لفظت النفس الاخير . تلك المرأة التى حكمت بلادها نصف قرن تقريباً . وبموتها وموت ابن أختها انتهت الاسرة المنشورية وافتتحت الصين عهد الجمهورية

فهرست

الصفحة